سلسلة مفاهيم إسلامية ينبغي أن تصحح (2)

مفاهيـــم أساســـية

د هشام صقر

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد،

هذا هو الكتاب الثاني في سلسلة مفاهيم إسلامية ينبغي أن تصحح، وإن كان في العمر بقية تصدر كتب أخرى إن شاء الله تعالى.

تهدف هذه السلسلة إلى معالجة الأخطاء الفكرية والشرعية التي انتشرت بين الإسلاميين في العقدين الأخيرين خاصة، وتسببت في انحرفات جسيمة في الفكر والسلوك والأداء، ولا يستثنى من ذلك بعض الدعاة بل والعلماء، مما أوصلنا إلى ما نحن فيه من الفوضى والتيه والانقسام في كل شيء.

ينقسم الكتاب إلى فصلين، الأول يتعلق بالشمول والمرجعية والمقاصد، مع بيان بعض الأفهام المغلوطة المتعلقة بكل منها، ويتناول الفصل الثاني قضايا إسلامية أساسية مثل مفهوم الحضارة، والثقافة، والتربية، والسمات الأساسية للدعوة الإسلامية، وفقه الحركة وفقه الأوراق، وومضات في الطريق مثل الخوف والضعف والقوة والتوكل والاستسلام لله والحياة في التصور الإسلامي.

أسأل الله أن يجعل كل عملي خالصا لوجهه، وأن يتقبله مني، ومن كل من ساهم في صدوره، واستغفر الله عن كل تقصير صدر مني، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

هشام صقر \ ماليزيا \ مارس 2020.

الفصل الأول

الشمول والمرجعية والمقاصد

الحمد لله القائل في كتابه ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ وبعد،

إن فهم قضية شمول الإسلام والعمل بها ولها، وكذلك فهم قضية المرجعية عند المسلم الحق، وفهم قضية المقاصد وحقيقتها ودورها في التشريع الإسلامي، من أهم القضايا المعاصرة التي يجب توضيحها ومناقشتها، لإعادة الأمر إلى نصابه، وإغلاق أبواب الخلل، والتأويل الفاسد، والانحراف عن الجادة، ولذلك سنتناول بتركيز كل من هذه الأمور الثلاثة، وأسسها، وخطورة مخالفتها عمليا وواقعيا.

أولا : الشمول

معنى شمول الإسلام أن الإسلام منهج متكامل: تشريع شامل لكل مجالات الحياة، فهو إيمان وعمل، عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة، فكر وعاطفة، حكم وجهاد، علم وثقافة، أخلاق وعمران.

وبمعني أنه ليس من شيء يتعلق بالإنسان والحياة يمكن بحثه بمعزل عن الإسلام، وأنه ما من تشريع أو حكم أو فعل يمكن أن يخرج عن إطار حكم الشريعة وتنظيمها.

ويعتبر الشمول من أهم القضايا في فهم الإسلام، وهو يضاد كل أفكار الاجتزاء **كعلمنة الإسلام وجعله فرديا، وفي البيت والمسجد فقط**، ولا علاقة له بالمجتمع وسيره وتنظيمه (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)، ومن أشهر عباراته الزائفة الضالة، لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، **أو التضخيم والتصغير لبعض فرائضه بغير برهان،** كزعم أهمية قصوى لجزء من الإسلام مع خفض أهمية الباقي، أو تأويله تأويلا غير صحيح، كالتركيز على الذكر والقلوب، أو على العلم والعقيدة، أو على دعوة الناس، أو على الإغاثة والإنفاق، **أو إهمال فرائض الكفاية جهلا وهروبا** كما في الفصل الأول من الكتاب الأول، وغير ذلك كثير، والصحيح هو الإيمان بشمول الإسلام ووجوبه، ثم لا بأس من التخصص في العمل كجزء من كل، ودون إهمال أو انتقاص الفرائض الأخرى عمليا، وهكذا.

ومن أجمل وأجمع وأوضح ما كتب في الشمول مختصرا جدا هو ما كتبه الشيخ حسن البنا رحمه الله في الأصل الأول من أصوله العشرين لفهم الإسلام، ونصه كالآتي:

الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة، سواء بسواء.

وسنحاول تقديم شرح مختصر نقلنا منه بتصرف أجزاء من شرح الدكتور عبد الكريم زيدان للأصول رحمهما الله.

نظام شامل أي منهاج حياة عام شامل، يشمل كل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية والعسكرية، و**العموم** يراد به أنه للبشر كافة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)، و**الشمول** يراد به أن يحكم شؤون الحياة وما يصدر عن الإنسان وما يتعلق به (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)، (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ).

الجانب السياسي : فهو دولة ووطن: يعني أن فيه أحكاماً تنظم أمور الدولة وتعني بشؤونها، **والدولة** في الإسلام تقوم على أساس فكرة هي الإسلام، فهي دولة عقيدية فكرية، وليست قومية ولا جنسية ولا إقليمية، وأن رئيسها يختار من قبل المسلمين وفق شروط معينة يجمعها الكفاءة والأمانة، وأن الغرض من اختياره تنفيذ الشرع وحمل الناس على إتباعه، **ووطن** يراد به جميع ديار الإسلام، ودار الإسلام: كل إقليم يسكنه المسلمون، وكانت السلطة فيه لهم، ويطبقون أحكام الإسلام فيه، وحق دار الإسلام على المسلم الدفاع عنها ومنع العدو من الاستيلاء عليها، ووجوب استعادتها حال ضياعها.

أو حكومة وأمة: الحكومة هي الشكل التنفيذي للدولة والمسؤولة عن تحقيق أهدافها الشرعية، **والأمة** هي جماعة من الناس تجمعهم روابط معينة تجعل منهم جماعة مميزة متآلفة، والإسلام يقيم هذه الأمة على أساس العقيدة الإسلامية (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، وهي تمثل المنتمين إلى دار الإسلام.

الجانب الاجتماعي : وهو خلق وقوة: فالخلق (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، وفي الحديث الشريف (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، (كان خلقه القرآن)، فالأخلاق جزء هام من دعوة الإسلام، ولا يسع الإخوان أن يهملوا ما جاء به

الإسلام، فالصبر والاستقامة والثبات والعزة والصدق والوفاء وعلو الهمة والإخلاص وغيرها من الأخلاق الكريمة كلها مطلوبة وذات أثر حاسم في سلوك الإنسان، وأضداد هذه الأخلاق كالجزع والهلع والتردد والنفاق والذلة والمهانة والكذب والغدر والرياء ونحو هذه الرذائل كلها مطلوب تركها وتخلية النفس منها،

وأما **القوة** فإن الإسلام دعا إلى القوة فلا يجوز للمسلم أن يضعف أو يستكين، **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)** وهذا الطلب **(وَأَعِدُّوا)** للوجوب، **ومفهوم القوة مفهوم شامل** لكل ما يحتاجه المسلمون في أي زمان ومكان لتحقيق النصر والتمكين لدين الله، فيجب أن يكون في المسلمين العدد الكافي للقيام بهذه الأسباب لإيجاد القوة اللازمة تطبيقاً للقاعدة الفقهية (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، كما ان القوة تشمل **قوة الإنسان** في نفسه وبدنه وعقله وعليه أن يباشر الأسباب التي تجعله قوياً، أما قوة نفسه فبالإيمان وأما قوة بدنة فالرياضة والفروسية ونحوها، وأما قوة عقله فبالعلم، وليعلم الأخ أن الحق لا بُد له من قوة تحميه هذه سنه الله في الحياة.

أو رحمة وعدالة: الرحمة رأفة في القلب تحمل الإنسان على إعانة الضعيف المحتاج، وهي خلق جميل إذا ما وضع في موضعه، فلا يجوز أن تتدخل الرحمة في تعطيل حدٍ من حدود الله (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)، وهكذا سائر الحدود الأخرى.

والرحمة لا مجال لها مع أعداء الله الصادّين عن سبيله وإن كانوا أولي قربى.

أما في الإساءات الشخصية فيستحب فيها العفو إذا كان الإنسان قادراً على أخذ حقه ممن أساء إليه.

أما **العدل** فيراد به إعطاء كل ذي حق حقه وعدم هضمه شيئاَ، لأن العدل واجب مع كل إنسان، مسلماً كان أو كافراً، عدواً كان أو صديقاً قريباً كان أو بعيداً (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)، والعدل يكون بالحكم والقضاء ويكون بالمدح والثناء وبالذم والنقد والعتاب وفي حالة الرضا والغضب.

الجانب العلمي والقانوني : وهو ثقافة وقانون: الثقافة هي الأخذ بقسط وافٍ من المعرفة النافعة لنا، فلا مانع يمنع المسلم من تحصيل المعرفة في أمور الكون والصناعات ومختلف العلوم المادية التي تدخل في مفهوم الثقافة وتهيئ للإنسان سبيل عمارة الأرض.

وقانون أي أن الإسلام جاء بأحكام لتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم، ونصّ على عقوبات وجزاءات للمخالفين، والقانون الإسلامي يشمل مختلف شؤون العلاقات بين الناس، وبالتالي لا يجوز للمسلم أن يهجر هذا القانون الإسلامي ويستعيض عنه بقانون آخر.

وهو **علم وقضاء: علم** وهو معرفة وإدراك الحقائق والأشياء كما هي، فيعرف المسلم ربه ورسوله ودينه ومعاني هذا الدين، وتلي هذه المرتبة معرفة الأمور الأخرى التي تتعلق بأمور الحياة المختلفة (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ)، (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

أما **القضاء** فإن من مناهج الإسلام القضاء بين الناس، فالناس بحاجة إلى حاكم يقضي في خصوماتهم ورد الحق إلى صاحبه، وجوامع الضوابط في مسألة القضاء أن الإسلام يجعل القضاء فريضة، والقاضي المسلم يحكم بالقانون الإسلامي ويحرم عليه أن يحكم بغيره، وإذا حكم بالأحكام الإسلامية عليه أن يتحرى العدل، ويبذل الجهد فإذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد.

الجانب الاقتصادي : وهو مادة وثروة أو كسب وغنى: أي أن الإسلام لا يهمل أمور المادة، فهو يعنى بالروح ويعنى بالمادة، ولكن المسلم يحفظ قلبه خالصاً لله فلا تأسره المادة مهما كثرت، وللمسلم أن يباشر أنواع المكاسب بشرط أن تكون مباحة غير محرمة، ، وعليه أن يُخرج ما افترضه الله عليه في أمواله مثل حق الزكاة وحق النفقات الشرعية، وعلى الأخ أن لا يزهد في الكسب بحجة الزهد والانقطاع إلى العبادة فإن الزهد محله القلب لا اليد، والعبادة لا تناقض الكسب (اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى).

الجانب العسكري والرسالي : وهو جهاد ودعوة: والجهاد هو الفريضة الكبرى الماضية إلى يوم القيامة، وحقيقته: بذل الجهد في سبيل الله حتى يصل هذا الجهد المبذول إلى إراقة الدم المسلم في سوح القتال، ومن الجهاد: الجهاد بالمال والقلم واللسان، والمسلم يقوم بالجهاد بصفته فرداً ويقوم به بصفته عضواً في الجماعة، والجهاد في يومنا هذا فرض عين على الجميع، إن قيام حكومة إسلامية حقاً يعتبر من أهم الوسائل التي تحقق ما يريده الإسلام،

والدعوة إلى الإسلام واجب من أكبر الواجبات الشرعية (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، وتكون بالوسائل المشروعة كافة كالكتابة والمحاضرة والمناقشة والقيام بالأسفار ونحو ذلك،

وأعظم وسائل الدعوة إلى الإسلام: صياغة المسلم نفسه صياغة إسلامية تسهل عليه دعوة الناس إلى الإسلام إذ يرون فيه مثلاً حياً للمعاني الإسلامية، وقد افتقد الناس منذ زمن مثل هذه القدوات في حياتهم، ومن واجبات الإسلام قيام جماعة تقوم بهذا الواجب، فضلا عن وجوبه على الجميع، (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

أو جيش وفكرة: والجيش هو مظهر من مظاهر الاستعداد للجهاد، وهو من أقوى وسائله، ومن البديهي أن إعداد الجيش يحتاج إلى إعداد الجنود والعتاد والسلاح، فلا بُد من تربية أفراد الأمة على الجندية ونظامها وطاعتها، ولابد من الإعداد الشامل لأنواع القوة،

وأما **الفكرة** فالمراد بها: إعداد الجيش بحيث يكون قائماً على أساس فكرة معينة هي الإسلام، أي أن الجيش الإسلامي يقوم تنفيذاً لأمر الإسلام وحسب مناهجه وحماية له والدعوة إليه، والسيف لا يُدخل الإسلام في القلوب وإنما يزيل العوائق عنها فتتسع له وينساب نوره إليها، إن وراء كل فكرة دولة تُدين بهذا الفكرة وتستخدم قوتها وطاقتها للتبشير بها والدفاع عنها، أما الإسلام فلا توجد له

دوله تقوم على مبادئه وتُسخر كل طاقاتها للدفاع عنه والتبشير به، لهذا عظمت مهمتنا الآن وثقل العبء.

الجانب العقيدي : كما هو عقيدة صادقة: وليس في العالم عقيدة حقة غير عقيدة الإسلام، وما خالفها فهو باطل وضلال، وتقوم العقيدة الإسلامية على أساس الإيمان بالله (وينقسم إلى الإيمان بالربوبية والإيمان بالألوهية) وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

الجانب العبادي الشعائري : وعبادة صحيحة: الإسلام يتضمن أنواع العبادات، فمنها عبادة القلب مثل حب الله جل وعلا وخشيته والثقة به والتوكل عليه، ومنها عبادات الجوارح مثل ذكر الله تعالى والقيام بما افترضه من صلاة وصيام وحج، وتقوم العبادات على أصلين كبيرين هما: أن تكون خالصة لله، وأن تكون وفق ما شرعه الله، ولذلك شدد الإسلام على حرمة الابتداع في دين الله.

سواء بسواء: أي أن ما أمر الله به في الحكم والجهاد والاقتصاد يوازي ما أمرنا به من العقيدة الصادقة والعبادة الصحيحة، فكلاهما من الآمر سبحانه، وفرائض العين هي فرائض الصلة بالله والشحن الإيماني، وفرائض الكفاية هي فرائض أداء رسالة الإسلام وإقامته في الأرض.

ويصف البنا رحمه الله جماعته بالشمول العملي التطبيقي فيقرر أنها :

دعوة سلفية : لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله.

وطريقة سنية : لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء ،وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وحقيقة صوفية : لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

وهيئة سياسية : لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على هويته إلى أبعد حد.

وجماعة رياضية : لأنهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف.

ورابطة علمية ثقافية : لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وشركة اقتصادية : لأن الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه.

وفكرة اجتماعية : لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها.

وفي تقسيم آخر لأحكام الإسلام بالنسبة لما تتعلق به، تنقسم إلى الأقسام الآتية:

أولاً: أحكام العقيدة الإسلامية، وهي تتعلق بأمور العقيدة كالايمان بالله واليوم الآخر وهذه هي الامور الاعتقادية.

ثانياً: أحكام الاخلاق، وهي المتعلقة بما يجب أن يتحلى به المسلم، وما يجب أن يتخلى عنه كوجوب الصدق وحرمة الكذب.

ثالثاً: أحكام تتعلق بتنظيم علاقة الانسان بخالقه، كالصلاة والصيام وغيرها من العبادات.

رابعاً: أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الافراد فيما بينهم وهذه على أنواع:

أ) أحكام الاسرة من نكاح وطلاق وإرث ونفقة.. الخ وتسمى في الاصطلاح الحديث بأحكام الاسرة أو قانون الأحوال الشخصية.

ب) أحكام تتعلق بعلاقات الافراد ومعاملاتهم كالبيع والاجارة والرهن والكفالة، وهي التي تسمى في الاصطلاح الحديث بأحكام المعاملات المالية أو بالقانون المدني.

ت) أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى واصول الحكم والشهادة واليمين والبينات وهي تدخل فيما يسمى اليوم بقانون المرافعات.

ث) أحكام تتعلق بمعاملات الاجانب غير المسلمين عند دخولهم الى اقليم الدولة الإسلامية، والحقوق التي يتمتعون بها والتكاليف التي يلتزمون بها، وهذه الاحكام تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدولي الخاص.

ج) أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الاخرى في السلم والحرب، وتدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدولي العام.

ح) أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وكيفية اختيار رئيس الدولة، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم ازاءها، وهي تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدستوري.

خ) أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الافراد والدولة، وبين الاغنياء والفقراء، وهي تدخل في القانون المالي بمختلف فروعه.

د) أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الافعال المنهي عنها "الجرائم ومقدار عقوبة كل جريمة".. وهذه تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الجنائي ويلحق بهذه الاحكام الاجراءات التي تتبع في تحقيق الجرائم وانزال العقوبات بالمجرمين وكيفية تنفيذها، وهي تدخل فيما يسمى اليوم بقانون تحقيق الجنايات أو بقانون المرافعات الجزائية.

ومن واجبنا نحو الشمول :

ا- أن نؤمن به إيمانا راسخا، فإن الله عز وجل نعى على من جزءوا الدين من قبلنا فقال (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ)، (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ب- أن نطبقه في حياتنا تطبيقاً كاملاً، بحيث يَظهرُ في عقيدتنا وعبادتنا وأخلاقنا ومعاملاتنا، فإن بداية عودة الإسلام الشامل، أن نطبقه على أنفسنا.

ج- أن نربى أولادنا عليه، ليحدث لهم التوازن والاعتدال، فلا يتضخم جانب من جوانب الدين عندهم على حساب جانب آخر، ولا يخدعهم خادع أو يضللهم.

د- الدعوة إليه، ودحض كل فكرة أو دعوة مخالفة له أو صادة عنه، وهذه هي معركة الإسلام الكبرى الآن، فإن المجرمين يريدون حصر الإسلام في المسجد، وحصره في الشعائر دون الشرائع، ليحكموا بلادنا بعلمانيتهم الكافرة الفاجرة، ويسرقوا خيراتنا.

ثانيا : المرجعية

جعل الله المرجعية في الإسلام، والحكم بما أنزل الله وتطبيق شريعته، مسألة عقيدية لا إيمان للفرد بدونها (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... الظالمون ... الفاسقون)، (أفحكم الجاهلية يبغون)، (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)، (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا)، (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)، (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به)، وغيرها من الآيات والأحاديث.

والمرجعية في الإسلام لها مصدران رئيسيان، هما القرآن والسنة، ومصادر تابعة أهمها الإجماع والقياس، ثم مصادر أخرى مثل المصالح المرسلة والاستحسان وقول الصحابي وغيرها مما ورد في كتب أصول الفقه.

إننا يجب أن نعلم أهمية المرجعية في بناء الأمة المسلمة، فالأُمة المسلمة هي جماعة من البشر تنبثق تصوراتهم وحياتهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم من الإسلام، وهذه الأُمة قد انقطع وجودها في الأرض منذ فترة، ولا بد من بعث وإعادة وجود لهذه الأُمة، فهذه الأمة لن يتحقق وجودها إلا بالتزامها بالمرجعية الإسلامية.

لقد كان القرآن وحده هو النبع (المرجعية) الذي يستقي منه الصحابة، ويتكيفون به، ويتخرجون عليه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين، من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهي، الذي يتضمنه القرآن الكريم.

ثم اختلطت الينابيع، والمصادر، والمرجعيات، فصبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم، وأساطير الفرس وتصوراتهم، وإسرائيليات اليهود، ولاهوت النصارى، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات، **وفي زماننا المعاصر ظهرت العلمانية والليبرالية والبراجماتية وغيرها من الفلسفات،** فاختلط هذا كله بفهم قطاع كبير من أجيال المسلمين للإسلام، فضاعت مفاهيم أساسية، وأصول وقواعد، وانحرفت الأجيال التالية عن هذا الجيل الفذ، بسبب اختلاط المرجعية، ولا سبيل للعودة بالمسلمين إلى إسلامهم الصحيح إلا بالعودة إلى التمسك بالمرجعية.

ومن التطبيقات الهامة لمفهوم للمرجعية أن يشعر المسلم في اللحظة التي يلتزم فيها بالإسلام، أنه يبدأ عهداً جديدًا، منفصلاً كل الانفصال عن حياته

التي عاشها في الخلط سابقا، وأن يقف من كل ما عهده في ماضيه موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام، فإذا غلبته نفسه مرة، وإذا اجتذبته عاداته مرة، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة، شعر في الحال بالإثم والخطيئة، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْي القرآني. لا أن يعتقد أن ما كان فيه صحيح، وأن الالتزام بالإسلام هو للتحسين والإضافة فقط، كما يحدث عند الكثيرين، فالإسلام منهج تغيير كلي للفرد والجماعة.

ومن التطبيقات الهامة أيضا أن المؤمن يجب أن يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، فشعور التلقي للتنفيذ كان يفتح للصحابة من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة (اتبع ما أوحي إليك من ربك)، (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)، (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)، إن هذا القرآن لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ، وإن كان هذا كله من محتوياته، إنما جاء ليكون منهاح حياة، منهاجًا إلهيًّا خالصًا.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة، كما يقول الشيخ البنا رحمه الله، هما مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات.

فلا خلاف بين المسلمين أن القرآن الكريم هو المصدر الأول، للأحكام وأنه حجة على المسلمين، وأن السنة النبوية متممة للقرآن وشارحة له، وواجبة الاتباع كالقرآن.

والقرآن والسنة كلاهما وحيّ إلهي، ولكن القرآن لفظه ومعناه وحيّ إلهي، والسنة معناها وحي إلهي، أما ألفاظها فمن الرسول الكريم، ولما كان القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين فقد اقتضى ذلك لمن يريد التعرف على الأحكام من نصوصه أن يعرف قواعد اللغة العربية وأساليبها في التعبير، كما أن على من يريد التعرف على أحكامه أن يعرف أموراً أخرى منها الناسخ والمنسوخ، وأسباب نزول الآيات، وحكمة التشريع، وغير ذلك من العلوم القرآنية، حيث أن هذه المعرفة ليست واحدة عند جميع المسلمين، فإن المسلم يفهم من القرآن بقدر ما عنده من هذه المعرفة، وما لم يستطع معرفته من القرآن الكريم سأل عنه أهل العلم.

وأما **السُّنَّةُ النبوية** فمعرفتها تتوقف على معرفة السند والمتن، فأما **السند:** فيُراد به معرفة أحوال الرواة من جهة مدى الوثوق برواياتهم لتعرف مدى صحة الحديث، ويكفي المسلم الآن أن يتعرف على صحة الحديث في ضوء ما قرره علماء الحديث وأصحاب الخبرة في الجرح والتعديل، وقد جمع علماء المسلمين الأحاديث الصحيحة في دواوين خاصة، كما بين بعضهم الأحاديث المكذوبة

والضعيفة، فإذا عرف المسلم ذلك باطلاعه على هذه الدواوين وما قرره علماء الحديث بشأن ما فيها من صحيح أو ضعيف، عرف عند ذلك الأحاديث الموثوقة التي يعمل بها.

وأما معرفة **المتْن:** فيُراد به معرفه معنى الحديث، والأحكام التي اشتمل عليها، ويرجع في معرفة ذلك إلى فقهاء الحديث وعلمائه، وإذا لم يكن المسلم من أصحاب الفقه في الحديث والعلم به، فإنه توجد جملة كتب تعنى بفقه الحديث، منها: نيل الأوطار للشوكاني، وسبل السلام للصنعاني، وعمدة الأحكام لابن دقيق العيد، وغيرها.

إشكاليات معاصرة في تطبيق المرجعية :

ا- العلمانية : وتطبيقها يعني إلغاء ومنع أي محاولة لتطبيق الإسلام مجتمعيا، فهي في أصلها إلحادية، وفي تطبيقها تعزل الأديان عن الحياة ممثلة في السياسة والاقتصاد والقانون والممارسة الاجتماعية، وتجعلها دينا فرديا، ولا تسمح بتدخلها في الشأن العام.

وكل مجتمعاتنا العربية والإسلامية تطبق العلمانية بأشكالها، والقوانين الوضعية، وهي بعيدة كل البعد عن التطبيق الإسلامي والمرجعية، بل لا يقر قادتها وأصحاب النفوذ فيها بالمرجعية الإسلامية، وهذه جريمة عقيدية كبيرة كما سبق، مما يوقع المسلمين جميعا في إثم كبير دائم ما لم يتداركوا بالعمل على الرجوع إلى المرجعية الإسلامية من خلال دولة إسلامية تقيم الإسلام وفرائضه، (اتبع ما أوحي إليك من ربك)، (ولا تتبعوا من دونه أولياء)، (وأن

احكم بينهم بما أنزل الله)، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، (أفحكم الجاهلية يبغون).

ب- **الليبرالية والديموقراطية:** والليبرالية هي الفلسفة والأيديولوجية وهي علمانية إلحادية، والديموقراطية هي الآلية المنوط بها تحقيق أهداف الليبرالية العلمانية، وهي أيضا إلحادية تمنع سيطرة أهل أي دين أو الحكم بأي دين، وتؤسس لتشريع الناس لأنفسهم، والحرية الشخصية المطلقة بلا ضابط أخلاقي أو ديني، والعجيب أن بعض علماء المسلمين وقع في الفخ، وبعضهم أصحاب هوى، فزعموا قبول الآلية دون فلسفتها وأيديولوجيتها التي تسعى لتحقيقها، وهذا مستحيل في العرف العلمي الصحيح، فأصبح الكثير من الحركات الإسلامية تتبنى الديموقراطية سياسيا، فضاعوا وأضاعوا، وضلوا وأضلوا، وهاهم يراوحون في مكانهم، يستجدون من أعدائهم، ويقبلون بالطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به، (يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ)، (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)،(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى)،(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعروة الْوُثْقَى)،(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا من الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ).

ج- **البراجماتية** : وهي فلسفة علمانية نفعية مصلحية، وهي أساس مذهب الغاية تبرر الوسيلة، وهي السائدة في السلوك السياسي والاقتصادي والاجتماعي الغربي، فالمرجعية فيها هي المصلحة والمنفعة ولا شيء آخر، وقد تسربت في كل السلوكيات السياسية والاقتصادية في بلادنا الإسلامية

(افتراضيا)، وهي تضاد كل الضوابط الأخلاقية والأحكام الشرعية الإسلامية القائمة على المرجعية الإسلامية.

ثالثا : المقاصد الشرعية

إن تناول المقاصد هنا ليس بغرض الدراسة الأكاديمية التفصيلية، فذلك متاح في مظانه من كتب أصول الفقه، وتناوله العلماء بتفصيل شديد، ولكننا هنا نريد أن نركز على جزء أساسي من المقاصد العامة، وكذلك أن نبين خطورة استخدام المقاصد في غير موضعها في زماننا، مما يضيع الإسلام والفهم الصحيح له.

وسوف نتناول إن شاء الله تعريفا مبسطا للمقاصد وتقسيمها كما اتفق عليه العلماء، ثم نبين أهم المقاصد الشرعية وتطبيقاتها في زماننا المعاصر، ثم نتناول أخطر صور الانحراف عن الفهم الصحيح للمقاصد وأثر ذلك على المسلمين.

تعريف المقاصد وتقسيماتها

يطلق بعض العلماء مصطلح مقاصد الشريعة على الأهداف العامة التي تسعى الشريعة إلى تحقيقها في حياة الناس، ويطلق أيضاً على الأهداف الخاصة التي شرع لتحقيق كل منها حكم خاص.

أقسام المقاصد في الشريعة الإسلامية:

المقصد العام: هو تحقيق مصالح الخلق جميعاً في الدنيا والآخرة، ويتحقق هذا من خلال جملة أحكام الشريعة الإسلامية (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

المقاصد الخاصة: هي الأهداف التي تسعى الشريعة إلى تحقيقها في مجال خاص من مجالات الحياة كالنظام الاقتصادي أو الأسري أو السياسي إلخ، وذلك عن طريق الأحكام التفصيلية التي شرعت لكل مجال على حدة.

ويرى البعض أن المراد بمقاصد الشريعة: الحِكَم التي مِنْ أجل تحقيقها، ولإبرازها في الوجود، خَلَقَ اللّه تعالى الخَلْق، وبعث الرسل، وأنزل الشرائع، وكلّف العُقلاء بالعمل أو التَرْك، كما يُراد بها مصالحُ المكلّفين العاجلة والآجلة الّتي شُرعت الأحكام مِن أجلِ تحقيقها.

والمقاصد اصطلاحاً في أصول الفقه لها معنيان:

1. **مقاصد المكلف** وتبنى عليه قاعدة فقهية هي **(الأمور بمقاصدها).**
2. **مقاصد الشارع أو مقاصد الشريعة والمقاصد الشرعية**، وكلها عبارات تستعمل بمعنى واحد، ويمكن حصر المراد منها بالآتي:

ا- نفي الضرر ورفعهِ وقطعهِ.

ب- الكليات الشرعية الخمس: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل (العرض)، وحفظ المال.

ج- العلل الجزئية للأحكام الفقهية.

د- مطلق المصلحة سواء أكانت هذه المصلحة جلباً لمنفعة أم درءا لمفسدة.

مراتب المصالح البشرية:

ومصالح الناس من حيث الأهمية على ثلاث مراتب:

أ- **الضروريات:** وهي ما لا يستغني الناس عن وجودها بأي حال من الأحوال، ويأتي على رأسها الكليات الخمس (حفظ الدين ، والنفس، والعقل، والعرض، والمال).

ب- **الحاجيات:** وهي ما يحتاج الناس إليه لتحقيق مصالح هامة في حياتهم، يؤدي غيابها إلى المشقة واختلال النظام العام للحياة، دون زواله من أصوله، كما يظهر في تفصيلات أحكام البيوع والزواج وسائر المعاملات.

ج- **التحسينيات** وهي ما يتم بها اكتمال أحوال الناس وتصرفاتهم، والأخذ بما يليق بمحاسن العادات، وتجنب السفاسف وما يطعن في المروءة، وما يأنفه أصحاب العقول الراجحة، وفيها مراعاة للذوق، ومراعاة للفطر السليمة، ومراعاة للعقل الصحيح، ومراعاة للأدب، ومراعاة للحشمة، ومراعاة للمروءة، والتحسينات فيها واجب وفيها محرم، فإنها لا تعني ما لا لزوم أو قيمة له.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا، ودفع شر الشرين إذا لم يمكن أن يندفعا. ومن مقاصد الشريعة الإسلامية المحافظة على الكليات الخمس التي تواترت رسل الله تعالى على

وجوب المحافظة عليها، وهي الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، ومنها اليسر ورفع الحرج والمشقة.

وكان منهج التشريع في **رعاية هذه المصالح** الضرورية، والحاجية، والتحسينية، **عن طريقين أساسيين:**

الأول: الأحكام الشرعية التي تؤمن **إيجاد هذه المصالح وتكوينها.**

الثاني: الأحكام الشرعية التي **تحفظ هذه المصالح.**

والحديث هنا يتعلق بأعلى الضروريات وهو حفظ الدين، لأهميته من جانب، ولغفلة الكثير من العلماء والدعاة عنه عند مناقشة الفتن والتغيير والخروج من جانب آخر، كما أنه أصل المقاصد كلها **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)**، وضياعه ضياع للمقاصد كلها وللدنيا والآخرة. وسنتناول أهم الأحكام الشرعية لإيجاد مصالح وجود الدين، وأهم الأحكام الشرعية لحفظ مصالح بقاء الدين:

ا- أحكام لإيجاد الدين وتثبيته

1- الحكم بما أنزل الله (دولة إسلامية تقيم الدين وتطبق الشريعة) :

وهو أعلى الواجبات لإيجاد الدين وتطبيقه، وبدونه لا يكون إسلام حقيقي، وإنما مسلمون مبعثرون يحكمون بالكفر والعلمانية، وغاية أمنياتهم أن يمارسوا عباداتهم العينية من صلاة وصيام، أما باقي الإسلام فلا وجود له، بل المطالبة به تعد الآن من التطرف والغلو والتشدد.

إن الإسلام لا يقوم إلا بدولة إسلامية تقيم الشريعة، ووظائف الإسلام ورسالته، لذلك جعلها الله من مسائل العقيدة كما سبق ذكره (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)، (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)، (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرج مما قضيت ويسلموا تسليما)، فالعمل لإيجاد هذه الدولة وإقامتها هو أوجب واجبات الوقت على المسلمين جميعا، وبدون ذلك يضيع الجزء الأكبر من الإسلام، وهو فرائض الكفاية والرسالة، ويأثم المسلمون إثما عظيما باستمرار ضياع جل الدين والرسالة.

2- الدعوة إلى الله:

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير)، (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)، (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)، فلا يمكن أن يوجد الدين بغير الدعوة إليه، وتعليمه للناس، ونشر أخلاقه وفضائله، وتعليمهم فرائضه العينية وفرائضه الكفائية، ودور كل مسلم نحوهما، وتربية الشعب المسلم على العزة والكرامة والجهاد في سبيل الله، فالدعوة واجب على كل من يستطيعه بالقدر الذي يمكنه، وهي واجب أساسي ووظيفة أساسية من وظائف الدولة الإسلامية، تنظمها بين أبنائها، وللأجيال الجديدة، وتنظمها في البلدان الأخرى لنشر الرسالة والدعوة بين الناس، بكل الوسائل المتاحة، ولا يمكن إقامتها بالشكل الصحيح إلا من خلال دولة إسلامية بإمكاناتها وقدراتها.

3- الجهاد في سبيل الله (من جهة إزالة المعوقات أمام وصول دعوة الله إلى الناس):

وهو الوجه الأول للجهاد جهاد الطلب، (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)، (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)، (يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)، (كتب عليكم القتال وهو كره لكم)، (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) البخاري، (مَن لم يَغْزُ، أو يُجهِّزْ غازيًا، أو يخلُفْ غازيًا في أهلِهِ بخيرٍ: أصابه اللهُ بقارعةٍ قبل يومِ القيامةِ) أبوداود وابن ماجه والسلسلة الصحيحة، (مَن ماتَ ولم يغزُ ولم يحدِّث نَفسَهُ بالغَزوِ ماتَ علَى شُعبةٍ من نفاقٍ) مسلم، والكثير من الآيات والأحاديث، والجهاد فريضة كبرى ماضية إلى يوم القيامة، وبدونها يضيع المؤمنين ويذلوا، وتضيع الدعوة إلى الله، فيجب على الدولة الإسلامية تربية الشعب المسلم على العزة والكرامة والجهاد في سبيل الله، فضلا عن وجوب الإعداد الشامل المتنوع لأنواع القوة الواجبة.

وحكم الجهاد في زماننا الآن فرض عين لعدم إتمام الكفاية فيه، وإهماله فيه إثم كبير دائم، وتحقيقه الكامل لا يكون إلا بدولة إسلامية.

4- الأمر بالمعروف (من جهة الإقامة):

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)، (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، وهو يرتبط بالدعوة إلى الله، وهو علامة خيرية الأمة، وهو واجب على الأفراد،

والجماعات الصغيرة، وواجب أساسي للدولة الإسلامية، تنظم المجتمع كله على أساس الإسلام، وتأمر بالمعروف بشكل نظامي، وبإمكانية الدولة.

5- القيام بأصول العبادات العينية مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج من بعد الشهادتين:

فهذه العبادات العينية هي صلة العبد بربه، وهي وسيلة شحن الإيمان ورفعه، وهي واجب على الأفراد، ويجب على الدولة تيسيرها بكل الوسائل المتاحة، والتذكير بها، وتشجيعها، مثل المساجد، ولجان الزكاة للجمع والتوظيف، ولباس المرأة، ومواعيد العمل، وتيسير الطاعات على الناس، وتعسير وتقبيح وعقوبة المعصية بكل الوسائل المتاحة، وبناء الأعراف الإسلامية الصحيحة، والأخلاق الإسلامية الرشيدة.

ب- أحكام لحفظ وجود الدين وبقائه

1- النهي عن المنكر (من جهة الحفظ):

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)، (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) مسلم، وهو علامة خيرية الأمة، وهو واجب أساسي على الدولة الإسلامية، أن تنظم المجتمع كله على أساس الإسلام، وتنهى عن المنكر بشكل نظامي، وبإمكانية الدولة، كما أنه واجب على الجماعات الصغيرة، وعلى الأفراد، لدفع الفساد والفجور والبدع والمنكرات، وكل ما لا يرضي الله، فيحفظ الدين ويحمى من العبث والانحراف، (من قُتِل دونَ دينِه فهو شهيدٌ ومن قتل دون دمِه فهو شهيدٌ ومن قُتِل دونَ مالِه فهو شهيدٌ

ومن قُتِل دونَ أهلِه فهو شهيدٌ) إرواء الغليل وصحيح الجامع وصحيح الترغيب وأحمد والزواجر.

2- الجهاد في سبيل الله (من جهة الدفاع عن الدولة والمسلمين وأعراضهم وممتلكاتهم):

وهو الوجه الثاني للجهاد جهاد الدفع، (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)، (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)، (من قُتلَ دونَ دينِهِ فهوَ شهيدٌ ومن قتلَ دونَ دمِهِ فهوَ شهيدٌ ومن قتلَ دونَ مالِهِ فهوَ شهيدٌ ومن قتلَ دونَ أهلِهِ فهوَ شهيدٌ) إرواء الغليل وصحيح الجامع وصحيح الترغيب واحمد والزواجر، وذلك الجزء من الجهاد يختص برد العدوان على الإسلام أو المسلمين أو أعراضهم أو أموالهم، وهو واجب فردي، وعلى الجماعة الصغيرة، وأساسا على الدولة لقوتها وإمكاناتها، فيجب على الدولة تربية الشعب المسلم على العزة والكرامة والجهاد في سبيل الله، فضلا عن وجوب الإعداد الشامل المتنوع لأنواع القوة الواجبة.

وحكم الجهاد في زماننا الآن فرض عين لعدم إتمام الكفاية فيه، وإهماله فيه إثم كبير دائم، وتحقيقه الكامل لا يكون إلا بدولة إسلامية.

3- حد الردة، والحدود الشرعية

قال صلى الله عليه وسلم (من بدَّل دِينَه فاقتُلوه) البخاري كما صححه الذهبي والألباني وشعيب الأرناؤوط وأحمد شاكر، وذلك حتى يكون الإنسان جادا في اعتناقه للإسلام، وحتى لا يقدم على الإسلام إلا بعد قناعة تامة، فالإسلام لا يكره أحدا على اعتناقه، ولكنه لا يسمح بالتلاعب بالدين والاستخفاف به

واستغلاله (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، ولما سيسببه ذلك أيضا من عدم استقرار، وخلل اجتماعي، وبلبلة فكرية ودينية في المجتمع.

كما شرعت العقوبات الإسلامية، وعلى رأسها الحدود الشرعية، لزجر المنحرفين والعصاة والفجار والمنافقين عن العبث بالأسس الأخلاقية الإسلامية، والقواعد الشرعية الاجتماعية، ونشر الفواحش في المجتمع الإسلامي النقي.

وكلا من حد الردة والحدود الشرعية هما من باب المحافظة على المجتمع المسلم من أن تصيبه أدران الفجور والانحراف والفساد.

إشكاليات معاصرة في فهم وتطبيق المقاصد

أكبر إشكاليتين معاصرتين في فهم قضية المقاصد على وجهها الصحيح هما تضخيم دور المقاصد، واستخدام المقاصد لإلغاء بعض الأحكام.

ا- تضخيم دور المقاصد

إن دور المقاصد أساسا هو إعانة الفقيه على الاجتهاد في المسائل التي لا نص مباشر فيها، فيستخدم الفقيه المقصد المتعلق بالباب في اجتهاده في المسألة.

كما أن المقاصد العامة، وهي الأهداف والمصالح العامة للإسلام كما سبق، تعين على تفهيم وتربية المسلمين على الإطار العام للإسلام، والفرائض الكبرى التي تحقق أهداف الإسلام الكبرى، لتكون الصورة الكلية للإسلام واضحة للمسلمين قبل الانخراط في تفاصيل الأحكام الفرعية والعلوم المختلفة.

أما من يضخم دور المقاصد لتكون حاكمة على العلوم الأخرى خاصة الفقه وأصول الفقه، فهو خطأ، ومقدمة للوقوع في خطأ تقديم الأصول بديلا عن الإسلام وأحكامه وشموله، ليوافق أهواء السياسيين وغيرهم، وهي طامة يجب أن يمنعها المخلصون من العلماء وطلبة العلم، لأنها ذريعة إلى خلل جسيم متنوع.

ب- استخدام المقاصد لإلغاء بعض الأحكام

وهذه هي الإشكالية الكبرى في واقعنا المعاصر، فعلى سبيل المثال يستخدم هؤلاء مقصد المساواة (وهي لفظ عام لابد من تحديده وضبطه) لإلغاء أحكام الميراث للرجل والمرأة والمبنية على أدلة قطعية ، وليس ذلك من الشرع في شيء، بل هو تلاعب خبيث بمعنى المقاصد لتغيير الأحكام الشرعية الثابتة، والأخطر من ذلك هو استخدام بعض السياسيين الإسلاميين للمقاصد لتقديم صورة مخففة للإسلام تعجب الجمهور، على حساب الحق نفسه، وهذه جريمة شرعية.

بل استخدم بعض العلمانيين من الساسة المقاصد بدلا من الأحكام، وصرح بذلك جهارا، فقال أوافق على المقاصد ولا أوافق على الأحكام الإسلامية، لعلمه بعمومية ألفاظ المقاصد، والرغبة في إساءة استخدامها، والأخطر من ذلك هو استخدام بعض العلماء الشرعيين في التنظير لذلك، سذاجة أو عمدا.

إن للمقاصد دور هام كما سبق ذكره، لكن الانحراف هو في الاستغلال السيء، ومحاولة صناعة نسخة من الإسلام غير ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثانـي

قضايا أساسية في فهم الإسلام

هناك العديد من القضايا والمصطلحات التي ارتبك فيها بعض الدعاة بل وبعض أهل العلم، لأسباب عديدة منها حداثة المصطلح، ومنها الرغبة في مواكبة اللغة الحديثة المستخدمة، ومنها محاولة إبهار الشباب لتقريبهم من الدعوة، وغير ذلك، والمهم في الموضوع هو تحديد المصطلح بدقة، ليمكن التعامل معه شرعيا بشكل صحيح، فلا ننزلق إلى فكر أعدائنا، ولا نميع القضايا لشبابنا.

أولا : الحضارة

كثير من الدعاة يذكر الحضارة كهدف أساسي للعمل الإسلامي، والمشكلة هي في تعريف الحضارة التي نتكلم عنها، فإن تعريف الحضارة عند الغرب هي الحضارة المادية، متوسط مستوى دخل الفرد، وتيسيرات الحياة، والتقدم التكنولوجي، ومثل ذلك، فتأثر الكثير من الدعاة بذلك، واستخدم مصطلح الحضارة بهذا المعنى، وهذا خطأ كبير.

فالأمر في الإسلام يختلف جذريا، فالمجتمع المتحضر في الإسلام هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاماً، وخلقًا وسلوكًا، ثم يجتهد الإمام ومن معه في تحسين حياة الناس ما أمكنهم ذلك،

فالجانب المادي مقبول لكنه ليس أصلا، ولا يأتي إلا بعد تحقق قيام المجتمع الإسلامي الصحيح، ومجتمع المدينة ينطبق عليه ذلك، بل لقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم والحالة المادية العامة للمجتمع ليست جيدة، ولا يعني هذا التنظير للفقر والحاجة، ولكن وضع الأمور في نصابها وحجمها دون تأثر بفكر أعدائنا أمر هام.

إن المجتمع الإسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل، الذي ترتكز إليه حضارة الإنسان، وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له، وهو يعلن خلافته في الأرض عنه، ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الأعلى، هذا فقط هو المجتمع المتحضر، وخلافه هو المجتمع المتخلف أو الجاهلي بالمصطلح الشرعي.

وحين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، ويكون هذا كله صادراً من إله واحد، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر، وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، وحين يتجمع الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي، يكون هو المجتمع المتحضر أو الإسلامي، أما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية مثل الجنس واللون والقوم والأرض فهو المجتمع المتخلف أو بالمصطلح الإسلامي هو المجتمع الجاهلي.

وحين تكون " إنسانية " الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار، يكون هذا المجتمع

متحضراً، وأما حين تكون المادة (في أية صورة) هي القيمة العليا، سواء في صورة النظرية كما في التفسير الماركسي للتاريخ، أو في صور الإنتاج المادي كما في أمريكا وأوروبا وغيرها، فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعاً جاهلياً.

إن المجتمع الإسلامي لا يحتقر المادة، لا في صورة النظرية، ولا في صور الإنتاج المادي، فالإنتاج المادي من مقومات الخلافة في الأرض عن الله، ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته.

وحين تكون الأسرة هي قاعدة المجتمع، وتقوم هذه الأسرة على أساس التخصص بين الزوجين في العمل، وتكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف الأسرة، يكون هذا المجتمع متحضراً، ذلك أن الأسرة على هذا النحو، في ظل المنهج الإسلامي، تكون هي البيئة التي تنشأ وتُنَمّى فيها القيم والأخلاق الإنسانية التي أشرنا إليها، ممثلة في الجيل الناشئ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة، فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها)، والنسل (غير الشرعي) هي قاعدة المجتمع، وحين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأُسرة، وحين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة، عندئذ يكون هنا هو التخلف الحضاري بالقياس الإنساني، أو تكون هي الجاهلية بالمصطلح الإسلامي. **وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع متخلف أم متحضر،**

جاهلي أم إسلامي، من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالإنسان، ويكون الإسلام هو الحضارة.

وأخيراً فإنه حين يقوم الإنسان بالخلافة عن الله في أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده، ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يُحَكِّم شريعة الله وحدها في حياته كلها، وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له، ويسقط القيم والأخلاق المدعاة، ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله في هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترقية الحياة، أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، يومئذ يكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة، **فأما الإبداع المادي فقد يكون وتكون معه الجاهلية.**

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة (بطريقة الإسلام ومنهجه) على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي، وإنْ كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم (عند وجوده) وتدفعه إلى الأمام دفعاً، وترفع أهدافه، كما إنها تنشئه إنشاءً حين لا يكون، وتكفل نموه واطراده، ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصولها المستقلة، ويبقى للمجتمع الإسلامي طابعه الخاص، وتركيبه العضوي، الناشئان عن نقطة انطلاقه الأولى، التي يتميز بها عن كل مجتمعات الجاهلية.

لقد ذكر لنا القرآن أن الله أهلك حضارات مادية كبيرة ذات تقدم وقوة، بينما لم يكن المؤمنون على نفس المستوى من التقدم، ولكن الله نصرهم بأخذ الكافرين ذوي الحضارات، لأن الله يريد منا العبودية الحقة له سبحانه وتعالى.

إن الانبهار بالتقدم المادي والتكنولوجي والتيسيرات الحياتية في الغرب يفتن الناس عن الحقائق، ويبعدهم عن فهم حقيقة دينهم، وخاصة إذا كرر بعض الدعاة مثل هذه المفاهيم المغلوطة الخطيرة، فيصبح حلم الناس هو الراحة المادية لا إقامة الدين في الأرض كما يريد الله، فيضل الناس سبيلهم عن الهدى.

ومن أكثر الناس وقوعا في هذا الخطأ السياسيون من الإسلاميين، الذين يحاولون جذب الناس بأي طريقة، وإن كانت خاطئة، ويحاولون مجاراة السياسيين الآخرين في دغدغة مشاعر الناس ورغباتهم، للحصول على تأييدهم، ويرفعون شعارات لا علاقة لها بالإسلام، بادعاء الاصطفاف والتوافق والتفاهم مع الذين يحاربون الله ورسوله من العلمانيين والليبراليين وغيرهم، وكل ذلك لا يرضي الله ولا يقيم دينا ولا ينكأ عدوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثانيا : الثقافة

إن شريعة الله تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، وأصول المعرفة أيضاً، يتمثل في المعرفة بكل جوانبها، وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة، فالمسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة، كالكيمياء، والطبيعة، والأحياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، وطرق الإدارة (من

الناحية الفنية الإدارية البحتة) وطرق العمل الفنية، وطرق الحرب والقتال (من الجانب الفني) إلى آخر ما يشبه هذا النشاط، يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم، لأنها من الأمور الداخلة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بأمور دنياكم)، **وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان، وغاية وجوده، وحقيقة وظيفته، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله، ولا تتعلق بالمبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع والأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تنظم حياته أفراداً وجماعات.**

وأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله أفراداً أو مجتمعات، وهو التعلق بالنظرة إلى نفس الإنسان وإلى حركة تاريخه، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون، ونشأة الحياة، ونشأة هذا الإنسان ذاته (من ناحية ما وراء الطبيعة) فالشأن فيه، شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأصول التي تنظم حياته ونشاطه، مرتبط بالعقيدة ارتباطاً مباشراً، فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم، يثق في دينه وتقواه، ويعلم عنه أنه يتلقى في هذا كله عن الله، والمهم أن يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته، وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده.

إن اتجاهات الفلسفة بجملتها، واتجاهات تفسير التاريخ الإنساني بجملتها، واتجاهات علم النفس بجملتها (عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها)، ومباحث الأخلاق بجملتها، واتجاهات دراسة الأديان المقارنة بجملتها، واتجاهات التفسيرات والمذاهب الاجتماعية بجملتها (فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها)، إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر

الجاهلي قديماً وحديثاً، متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها (إن لم يكن كلها) يتضمن في أصوله المنهجية عداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي على وجه خاص.

إن حكاية أن الثقافة تراث إنساني لا وطن له ولا جنس ولا دين، هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية، دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية الميتافيزيقية لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعاً.

ويعتبر الإسلام أن هناك (فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية) نوعين اثنين من الثقافة: الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامي، والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة، قاعدة إقامة الفكر البشري إلهاً.

إن حكاية فصل العلم عن صاحب العلم لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنساني، والأوضاع، والقيم، والأخلاق، والعادات، وسائر ما يتعلق بنفس الإنسان ونشاطه من هذه النواحي.

إن العلم الذي تشير إليه الآيات القرآنية هو العلم الذي يهدي إلى الله وتقواه، لا العلم الذي يفسد الفطر فتلحد في الله، وهو ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع، فالعلم يشتمل على كل شيء، ويتعلق

بالقوانين الطبيعية، وتسخيرها في خلافة الأرض (من فرائض الكفاية)، تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع، ومن ثمَّ يكون أيضا من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي، وعلى نتاجه كذلك، في الدراسات الإسلامية.

إذا فهمنا كل ما سبق فكيف سنتعامل اليوم مع الثقافات العامة، والتعليم، والنت، ومصادر المعلومات المختلفة الكثيرة المتاحة الآن، الإجابة أننا سنتعامل بنفس هذا الفهم الدقيق، وسنكون حذرين للغاية، وفي نفس الوقت لن نحرم أنفسنا من استفادات حقيقية لا تعارض ديننا، ولا فكرنا، والأمر يحتاج إلى وعي وعزم ومثابرة وإصرار، والله المستعان.

ثالثا : التربية

وهي أهم عناصر بناء أفراد الأمة لتؤدي أدوارها في هذه الفترة العصيبة، وهي حجر الزاوية إن أردنا إحداث تغيير حقيقي وإقامة لدار الإسلام مرة أخرى، لكن المشكلة هي في ابتذال المصطلح طرحا وتطبيقا، فأصبحت شكلا بلا مضمون، وجزءا بعيدا عن الصورة الكلية المطلوبة، وأصبحت عند البعض هامشية تفوقها أمور أخرى، والبعض يقول كفاكم تربية وهيا نعمل، وكأنه قد أدى وأتقن في التربية ويريد التحريك كثمرة، وهذا بعيد عن الحقيقة والواقع، لذلك فإننا نعرض هنا باختصار أهم المعاني حول التربية التي يجب على الجميع فهمها ثم التركيز عليها.

ما هي التربية

التربية هي فن تغيير الأفراد وهي فن كبير، فالتربية هي صناعة الأفراد بإذن الله وبعونه، فهي كرسم لوحة متناسقة لكل فرد تشمل كل جوانب شخصيته، والتربية ليست عملية آلية تقليدية نمطية، وإنما هي عملية تفاعلية ديناميةتقويمية، وتقاس بتحقق الأهداف، ونمو الأفراد، وتغيرهم إلى الصورة المبتغاة لهم.

والتربية علم وخبرة وموهبة، فأما العلم فهو معرفة أساسيات العلوم التربوية وأنماط الشخصيات والذكاء الانفعالي والذكاء الاجتماعي وغير ذلك حتى يستطيع المربي أن يؤدي دوره بشكل علمي منهجي صحيح، **وأما الخبرة** فتنقسم إلى نوعين: خبرة مباشرة وهي التي مارس فيها المربي بنفسه، وخبرة غير مباشرة وهي التي تعلم فيها المربي من خبرات الغير وممارساتهم، **وأما الموهبة** فهي هبة من الله للفرد، يكون له بها حس خاص وذوق رفيع والتقاط سريع وتأثير قوي، وهي محض فضل الله، ولا دخل لنا بها.

وإعداد المربي الجيد يتم بالتركيز على العلم والخبرة في إعداده، مع محاولة استكشاف الموهوبين ليكون منهم المربي المتميز.

تعريف التربية

هي تغيير (أو تعديل) هادف (أو مقصود) في بعض (أو كل) جوانب الشخصية الإنسانية، من خلال إكسابها خبرات متنوعة ذات معنى، من خلال المنهج والبيئة والتفاعل التربوي.

وجوانب الشخصية الإنسانية هي : الجانب العقلي المعرفي الإدراكي، والجانب النفسي الانفعالي، والجانب الروحي، والجانب الأخلاقي، والجانب الاجتماعي،

والجانب الجسمي الحركي الأدائي، والجانب الجمالي. ويمثل السلوك الانساني محصلة تفاعل هذه الجوانب جميعاً، ولكل جانب من هذه الجوانب أساسياته، وطرق تنميته وقياسه، وهو ما يجب أن يعرفه المربي، كما يجب تحديد الصورة النهائية المبتغاة لمن نربيهم، وكيفية التدرج للوصول إلى تحقيق ذلك.

أما التعلم الآلي أو التلقيني فتكون المعلومات فيه **منفصلة** (ترابط ضعيف)، **ومجزأة** (الترابط بينها وبين الخبرات السابقة ضعيف مع غياب الصورة التكاملية)، **وغير واقعية** (لا يدرك المتعلم الهدف من تعلمها، ولا أهميتها، ولا علاقتها بحاضره ومستقبله)، **والخبرات ذات المعنى تعالج هذه المثالب.**

ومن المكونات الرئيسية للعملية التربوية: المنهج، وهو ليس مادة تدرس أو كتابا يقرأ كما هو شائع عند البعض، إنما يتكون المنهج من عناصر أساسية هي: الأهداف، والمحتوى، والأنشطة، والوسائل وطرق التعلم، والتقويم لكل العناصر (وليس للمتربي فقط)، ويجب أن تحتوي الخطة التربوية على كل هذه العناصر بتفصيل ووضوح لكل مستوى من المستويات التربوية.

ويمكننا اعتبار وجود ثلاثة أنواع من المناهج المطبقة : أولا المنهج العام وهو الذي يطبق على عموم المتربين والمتعلمين، **وثانيا المنهج الخاص** وهو الذي يستخدم للمتميزين ويحتوي على إضافات تناسب احتياجاتهم ونموهم، **وثالثا المسار البديل** وهو لمن عنده مشكلة تمنع من ارتقائه وتوثيقه إلى مستوى آخر، فيتم إعداد منهج له مع أمثاله بحيث لا يشعر بملل التكرار، مع حسن توظيفه.

أما <u>التفاعل التربوي</u> فهو التداخل بين المربي والمتربي، وقوة العلاقة والثقة بينهما، ولا يتم إلا بمعرفة تفاصيل حياته بشكل طبيعي، والمعايشة والخلطة العالية بينهما، ويحتاج الأمر إلى جهد كبير، وصدق في التعامل، وحب في الله، ولجوء إلى الله واستعانة به.

أما <u>البيئة التربوية</u> فتعني جميع المؤثرات القريبة والبعيدة المحيطة بالمتربي، وحيث أن لها تأثيرا على المتربي، فيجب على المربي أن يعرفها، ويصنفها، ويضع خطة للتعامل مع كل منها، مع محاولة إيجاد بيئات جديدة جاذبة للمتربي، ومشاركة المتربي نسبيا في بيئاته المحيطة به أمر هام، ليدرك حجم التأثير، ومدى إيجابياته وسلبياته، **فيضع خطته بالخفض أو التحويل أو إنشاء بيئات جديدة جاذبة للمتربي، مع النصح برفق، وبيان بعض جوانب الخطأ أو الخطورة أو المخالفات المحتملة**، مع الرد على الشبهات، ويساعد على ذلك إقناعه بهدف يعمل له، أو قضية ينشغل بها مع مجموعة من إخوانه، **إنها معركة الفراغ الوقتي والروحي والذهني والنفسي لدى المتربي**، خاصة في سن الشباب، وهي المعركة التربوية الأساسية، ومن أمثلة ذلك: تكوين مجموعات عمل منهم وتكليفها بمهام مع المنافسة البريئة، الرياضة وربطها بالمؤمن والجهاد من خلال المجموعة تشجيعا، أنشطة هادفة متنوعة جاذبة، ترفيه نظيف، موقع لكل مجموعة على النت، وهكذا.

إن البيئة **الروحية** للمسجد أساسية لكنها ليست كافية، والبيئة **العلمية** في معرفة أساسيات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي أساسية لكنها ليست كافية، والبيئة **الاجتماعية** مع إخوانه أساسية لكنها ليست كافية، وبيئة **العمل والحركة** لنصرة هذا الدين أساسية لكنها ليست كافية، وبيئة **التربية الأخلاقية السلوكية** أساسية

لكنها ليست كافية، وبيئة **التخصص الوظيفي** المفيد للعمل الإسلامي أساسية لكنها ليست كافية، وبيئة **الوعي بالواقع** وصراعاته وتحزباته من المنظور الإسلامي أساسية لكنها ليست كافية، **إن مجموع هذه البيئات هو البيئة التربوية الشاملة المطلوبة**، فيجب التخطيط لها جميعا ولأدواتها ووسائلها وقياس فاعليتها وتطويرها، أما ما يحدث الآن من سطحية وضعف فلن يؤدي إلى شيء سوى مزيد من الضعف العام والارتباك والتيه بين المخلصين من المؤمنين.

رابعا : السمات الأساسية للدعوة الإسلامية

١- الواقعية والجدية فى هذا الدين :

فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً وتواجه وجوداً واقعياً، إنها تواجه جاهلية اعتقادية تَصّورية تقوم عليها أنظمة واقعية، تسنُدها سُلطات ذات قوة مادية، لذلك يجب أن تواجِه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يُكافئه، **تواجههُ بالدعوة والبيان لتصحيح المُعتقدات والتصورات، وتواجههُ بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها**، تلك التي تَحوُل بين جمهرة الناس وبين التَصحيح بالبيان للمُعتقدات والتصورات، وتَخضعهم بالقهر والتضليل وتُعبدّهم لغير ربهم الجَليل.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)، وهكذا يُسفر الطُغيان عن وجهه، لا يُجادل ولا يُناقِش ولا يُفكر ولا يَتعقل، لأنه يَحُس بهزيمته أمام انتصار العقيدة فيُسفر بالقوة المادية الغليظة التى لا يملك غيرها

المُتجبرون (لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)، وهُنا تتجَلى حقيقة المَعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية.

لا يطلب الذين كفروا من رُسلهم مُجرد أن يكفوا عن دعوتهم، ولكنهم يطلبون منهم أن يعودوا فى ملتهم، وأن يندمجوا فى تَجمعهم الجاهلي، فيرفُضه الرسل من ثَم ويأبونه، فما ينبغى لمُسلم أن يندمج فى التجمُع الجاهلي مرة أخرى، إن التجمُع الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي لا يَسمح لعُنصر مُسلم أن يعمل من داخله إلا أن يكون عمل المُسلم وجُهده وطاقته لِحساب التجمُع الجاهلي ولتوطيد جاهليته، **والذين يُخّيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرّب فى المُجتع الجاهلي والتميُع فى تشكيلاته وأجهزته، هُم ناس لا يُدركون الطبيعة العضوية للمُجتمع، ولحساب منهجه وتَصوره.**

إن تَميُز المُسلم بعقيدته فى المُجتمع الجاهلي لابُد أن يَتبعه حَتماً تَميُزه بتَجمُعه الإسلامى وقيادته وولائه، وليس فى ذلك اختيار، إنها حَتمية من حَتميات التركيب العضوي للمُجتمعات، هذا التَرّكيب الذى يَجعل التجمُع الجاهلي حَسّاساً بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على عبودية الناس لله وَحده، وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان، كما يَجعل كل عضو مُسلم مُتميع فى المُجتمع الجاهلي خادماً للتجمُع الجاهلي، لا خادماً لإسلامه كما يظُن بعض الأغرار، ثُم تبقى الحقيقة القَدرية التى ينبغى ألا يَغفل عنها الدُعاة إلى الله فى جميع الأحوال، **وهى أن تُحقق وعد الله لأوليائه بالنصر والتَمكين والفصل بينهم وبين قومهم بالحق، لا يقع ولا يكون إلا بعد تَميُّز أصحاب الدعوة، وإلا بعد مُفاصلتهم لقومهم على الحق الذى معهُم.**

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مَفروضة عليهم فرضاً، وأنه لا يُجديهم فتيلاً أن يتقوها ويتجنبوها، فالطواغيت لنّ تتركهُم إلا أن يتركوا دينهم جزئيا أو كُليا، ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجّاهم الله منها.

ب- إحقاق الحق :

إن الحقَ لا يُحق، وإن الباطل لا يُبطل، فى المُجتمع الإنساني، بمُجرد البيان النَظري للحق والباطل، ولا بمُجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حَق وهذا باطل، إن الحق لا يُحق ولا يوجد فى واقع الناس، وإن الباطل لا يبُطل ولايذهب من دنيا الناس، **إلا بأن يُحطم سُلطان الباطل ويعلو سُلطان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويَظهروا، ويُهزم جند الباطل ويَندحروا.**

إن الإسلام عقيدة فى أعماق الضمائر، فُرقاناً بين الوحدانية المُجردة المُطلقة بكل شعبها فى الضَمير والشعور، وفى الخُلق والسلوك، وفى العبادة والعبودية، وبين الشرك فى كل صوره التى تَشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات، **ولكي تنتصر العقيدة فإن على أصحابها أن يُجاهدوا ويَخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية،** لأنهم يَملكون قوة أخرى تُرجح الكفة، وليس كلاماً يُقال إنما هو واقع مُتحقق للبيان (وكَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ)، وهذه واقعة بدر فُرقاناً بين الحق والباطل.

إن الحق قذيقة فى يَد القدرة تَقذف به على الباطل فَينشق دماغُه، فإذا هو زاهق هالك ذاهِب (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)، هذه هى السُنة المُقررة، فالحق أصيل فى طبيعة الكون عميق فى تكوين الوجود،

ولقد يُخيّل إلى الناس أحياناً أن واقع الحياة يُخالف هذه الحقيقة التى يُقررها العليم الخبير، وذلك فى الفَترات التى يَبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب، ويبدو فيها الحق منزوياً كأنه مَغلوب، وإن هي إلا فترة من الزمان يمدُ الله فيها ما يشاء للفتنة والابتلاء، ثُم تَجري السُنة الأزلية الباقية التى قام عليها بناء السماء والأرض، وقامت عليها العقائد والدَعوات سواء بسواء.

والمؤمنون بالله لا يُخالجهم الشك فى صدق وعده، وفى أصالة الحق فى بناء الوجود ونظامه، وفى نُصرة الحق الذى يقذف به على الباطل فَيدمغُه.

ج- الصدع بالحق :

هُناك حقائق عن طبيعة منهج هذه الدعوة لا يجوز للدُعاة الاجتهاد فيها، وهى أن عليهم أن يَجهروا بالحقائق الأساسية فى هذا الدين وألا يُخُفوا منها شيئاً، وألا يؤجلوا منها شيئاً، وفى مُقدمة هذه الحقائق: أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا لله، ومن ثَم فلا دينونة ولا طاعة ولا خُضوع ولا اتباع إلا لله، فهذه الحقيقة الأساسية يَجب أن تُعلَن أياً كانت المُعارضة والتَحدّي، وأياً كان الإعراض من المُكذّبين والتولي، وأياً كانت وُعورة الطَريق وأخطاؤها كذلك، وليس من الحكِمة والموعظة الحَسنة إخفاء جانب من هذه الحقيقة، أو تأجيله، لأن الطواغيت فى الأرض يَكرهونه، ويؤذون الذين يُعلنونه، ويكيدون له وللدعاة إليه، فهذا كلُه لا يَجوز أن يَجعل الدُعاة إلى هذا الدين يَكتُمون شيئاً من حقائقه الأساسية أو يؤجلونها، ولا أن يبدأوا مثلاً من الشعائر والأخلاق والسلوك والتَهذيب الروحي، مُتجنبين غضب الطواغيت فى الأرض.

إن هذا هو منهج الحَركة بهذا الدين ولهذا الدين كما أراده الله سُبحانه، ومنهج الدعوة إلى الله كما سار بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم بتوجيه من ربه، فليس لداع إلى الله أن يتنكب هذا الطريق، وليس له أن يَنهج غير ذلك النَهج، والله بعد ذلك مَتكّفل بدينه، وهو حسب الدُعاة إلى هذا الدين وكافيهم شَر الطواغيت، ويوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ويُخلصوا له الدين غير عابئين بالكافرين (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)، ولا أمل فى أن يَرضَوا عن الدين، مهما لاطفهم المؤمنون، أو هادنوهم، أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب، فليمض المؤمنون فى وجهتهم يَدعون ربهم وَحده، ويُخلصون له عقيدتهم، ويُصفون له قلوبهم، ولا عليهم رضي الكافرون أو سخطوا، وما هم يوماً براضين.

والذين يقولون أنهم مُسلمون ولا يُقيمون ما أُنزل إليهم من ربِهم هم كأهل الكتاب ليسوا على شيء كما بين ربنا، والذى يُريد أن يكون مُسلماً يجب عليه بعد إقامة كتاب الله على نفسه وفى حياته، أن يواجه الذين لا يُقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموه، وأن دعواهم أنهم على شيء يردها عليهم رب العالمين، فالمُفاصلة فى هذا الأمر واجبة، ودعوتهم إلى الإسلام من جديد هى واجب المُسلم الذى أقام كتاب الله فى نفسِه وفى حياته، فدعوى الإسلام باللسان والوراثة دعوى لا تُفيد إسلاماً ولا تُحقِق إيماناً، ولا تُعطى صاحبها صفة التدين فى أى ملة وفى أى زمان، فإن دين الله ليس راية ولا شعاراً ولا وراثة.

إن دين الله حقيقة تتمثل فى الضمير وفى الحياة سواء، تتمثل فى عقيدة تُعَمّر القلب، وشَعائر تُقام للتعبُد، ونظام يصرّف الحياة، ولا يقوم دين الله

إلا فى هذا الكل المُتكامل، ولا يكون الناس على دين الله حقيقة إلا وهذا الكلُ المُتكامل مُتمثِّل فى نفوسهم وفى حياتهم.

وحين يُحمحم صاحب الدعوة ويُتمتم، ولا يُبيّن الفارق الأساسى بين واقع الناس من الباطل وبين ما يَدعوهم إليه من الحق، وعن الفاصل بين حَقه وباطلهم، حين يفعل صاحب الدعوة هذا مراعاة للظروف والمُلابسات، وحذراً من مواجهة الناس بواقعهم الذى يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم فإنه يكون قد خَدعهم وآذاهم، لأنه لم يَعرّفهم حقيقة المطلوب منهم كُله، وذلك فوق أنه يكون لم يُبلّغ ما كلّفهُ الله تبليغه. **إن التلطف فى دعوة الناس إلى الله ينبغي أن يكون فى الأسلوب الذى يُبلّغ به الداعية، لا فى الحقيقة التى يُبلّغهم إياها،** إن الحقيقة يجب أن تُبلّغ إليهم كاملة، أما الأسلوب فيتبع المُقتضيات القائمة، ويَرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحَسنة.

هذه هى الحقيقة الأساسية للدعوة، والتى لا يَجوز للمُسلم الحق أن يُجمجم فيها أو يُتمتم أمام ضخامة الواقع الجاهلي الذى تَعيش فيه البشرية، فلا يُحمله ضغط الواقع الجاهلي أن يُداهن بشعار أو راية، إنما يَجب أن يَصدع بكلمة الحق ولا يخاف من قوى الباطل والجاهلية المُتراكمة.

وكلمة الحق فى العقيدة حين تَصدع تصل إلى مكامن القلوب التى يكمن فيها الاستعداد للهدى، وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة، لا المُداهنة والمُلاطفة على حساب كلمة الحق، **العقيدة ليست فيها أنصاف حلول.**

د- المداهنة وأنصاف الحلول :

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً)، فإنه لا لِقاء بينك وبينهم، ولا يُمكن أن تُقام قَنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التى تَفصِل منهَجك عن منهَجهم، وتَصورك للوجود كلِه عن تَصورِهم، وحَقك عن باطلهم، وإيمانك عن كُفرِهم، ونورك عن ظُلماتهم، ومَعرفتك بالحق عن جاهليتهم، اصبر ولو طال الأمد واشتدت الفتنة وقوى الإغراء وامتد الطَريق، والحقيقة التى يَنبغى أن يَعيش فيها أصحاب الدَعوة إلى الله هى هذه الحقيقة التى لَقنها الله لِصاحب الدعوة الأولى صلى الله عليه وسَلّم، وهى أن التَكلّيف بهذه الدعوة تَنَزّل من عند الله فهو صاحبُها، وأن الحقَ الذى تَنَزّلت به لا يُمكن مزجه بالباطل الذى يَدعو إليه المنافقون والكُفار، فلا سبيل إلى التعَاون بين حَقها وباطِلهم، أو الالتقاء فى مُنتصف الطَريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل، فهُما مَنهجان مُختلفان، وَطريقان لا يلتقيان.

ومن جُملة الدُعاة من يُفتن بهذا عن دَعوته، لأنه يرى الأمر هَيناً، فأصحاب السُلطان لا يَطلبون إليه أن يَترك دعوته كلية، إنما يَطلبون تعديلات طفيفة لِيلتقى الطرفان فى مُنتصف الطَريق، وَقد يَدخل الشيطان على حاملِ الدعوة من هذه الثَغرة، فَيتصور أن خير الدَعوة فى كسب أصحاب السُلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها، **ولكن الانحراف الطَفيف فى أول الطَريق يَنتهى إلى الانحراف الكامِل فى نهاية الطَريق، لأن استعداده للتَسليم يَتزايد كُلّما رَجع خطوة إلى الوراء.**

وأصحابُ السُلطان يَستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سَلّموا فى الجزءِ فقدوا هيبتهم وحصانتهم وعرِف المُتسلِطون أن استمرار المُساومة وارتفاع السِعر يَنتهيان إلى تِسلّيم الصفقة كُلِها، والتِسليّم فى جانب، ولو ضئيل، من جوانب

الدَعوة، لِكسب أصحاب السُلطان، هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحابِ السُلطان فى نُصرةِ الدعوة، والله وحده هو الذى يَعتمد عليه المؤمنون بِدعوتهم، ومتى دَبت الهَزيمة فى أعماق السَريرة فلن تَنقلب الهَزيمة نَصراً (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً . وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً).

لِذلك فمُحاولات المُساومة مع هذا الدين كَثيرة للالتقاء فى مُنتصف الطَريق، كما يَفعلون فى التِجارة، وفَرق بين الاعتقاد والتِجارة كبير، فَصاحب العَقيدة لا يَتخلّى عن شىء منها، لأن الصَغير منها كالكبير، بل ليس فى العَقيدة صغير وكبير، إنها حقيقة واحدة مُتكاملة الأجزاء لا يُطيع فيها صاحِبُها أحداً، ولا يَتخلّى عن شىء أبداً، وما كان يُمكن أن يلتقى الإسلام والجاهلية فى مُنتصف الطَريق، ولا أن يلتقيا فى أى طَريق (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ).

إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تُعبِر، ولا تُقام عليها قَنطرة، ولا تَقبل قِسمة ولا صِلة، وإنما هو البذل والجهاد الكامل الذى يَستحيل فيه التوفيق.

إن المُفاصلة ضرورية لإيضاح مَعالم الاختلاف الجَوهري الكامل الذى يَستحيل معه اللِقاء على شيء فى مُنتصف الطَريق، الاختلاف فى جَوهر الاعتقاد، وأصلِ التصور، وَحقيقة المَنهج، وطَبيعة الطَريق.

وتَميُّز هذه الصورة فى شعور الداعية هو حجر الأساس، شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء، لهم دينهم وله دينه، لهم طَريقهم وله طريقه، لا يملُك أن يُسايرهم خطوة واحدة فى طَريقهم، ووظيفته أن يَسير فى طريقه هو بلا مُداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير، فهي البراءة الكاملة والمُفاصلة التامة والحَسم الصَريح (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).

وما أحوج الداعين اليوم إلى الإسلام إلى هذه البراءة وهذه المُفاصلة وهذا الحَسم، ما أحوجَهم إلى الشعور بأنهم يُنشئون الإسلام من جديد، فى بيئة جاهلية مُنحرِفة، وفى أُناس سبق لهم أن عَرفوا العقيدة ثُم طال عليهم الأمد (فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)، وأنه ليس هُناك أنصاف حلول ولا التقاء فى مُنتصف الطريق، ولا إصلاح عيوب ولا تَرقيع مناهج، إنما هى الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان، الدعوة إلى الله، والتَميُز الكامل عن الجاهلية (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين)، **وبغير هذه المُفاصلة سيبقى الغَبش، وتبقى المُداهنة، ويبقى اللبس، ويبقى التَرقيع،** والدعوة إلى الإسلام التى لا تقوم على هذه الأُسس مدخولة واهنة ضَعيفة، إنها لا تقوم على الحَسم والصَراحة والشَجاعة والوُضوح، وهذا هو طريق الدعوة الأول (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).

هـ- الاستعلاء على المناورة والخداع :

إن الإسلام يَرعى حُرمات من يَرعون الحُرمات، ويُشدِد فى هذا المبدأ ويَصونه، ولكنه لا يَسمح بأن تتخذ الحُرمات متاريس لمن ينتهكون الحُرمات، ويؤذون

الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويَرتكبون كل مُنكر، وهم فى مَنجاة من القَصاص تَحت سِتار الحُرمات التى يَجب أن تُصان.

ومع هذا يبقى الإسلام فى مُستواه الرَفيع لا يَتدنى إلى مُستوى الأشرار البُغاة ولا إلى أسلحتهم الخَبيثة ووسائلهم الخسيسة، إنه فقط يدفع الجماعة المُسلمة إلى الضَرب على أيديهم، وإلى قِتالهم وقَتلهم، وإلى تَطهير جو الحياة منهم هكذا جَهرة، هذا هو الإسلام صَريحاً قوياً دامغاً لا يلف ولا يَدور، ولا يَدع الفُرصة كذلك لمن يُريد أن يلف من حوله أو يَدور.

هذا شر وفساد وبَغي وباطل فلا حُرمة له إذن، ولا يَجوز أن يتترس بالحرمات ليضرب من ورائها الحُرمات، وعلى المُسلمين أن يَمضوا فى طريقهم فى يَقين وثقة وسلام فى ضمائرهم، وفى سلام من الله.

هكذا يروج الباطل بِدعايته المُضللة بشتى الأساليب الماكرة على الجماعة المُسلمة أنها تعتدى وتنتهك الحُرمات، ومن قيادة الجماعة المُسلمة يأتى لهم الأمر المُطمئِن (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ).

خامسا : فقه الحركة وفقه الأوراق

إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ، لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية، كذلك لم يكن الفقه الإسلامي

هو الذي أنشأ المجتمع المسلم، إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي.

هاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة، كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي، وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية.

إن فقه الحركة يختلف اختلافا أساسيا عن فقه الأوراق، مع استمداده أصلا وقيامه على النصوص التي يقوم عليها فقه الأوراق.

إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره الواقع الذي نزلت فيه النصوص وصيغت فيه الأحكام، ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركبا لا تنفصل عناصره، وإلا فقد طبيعته واختل تركيبه.

مثال لذلك: حكم عدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب (فلا تزكوا أنفسكم)، (إنَّا لا نُوَلِّي هذا مَن سَأَلَهُ، ولَا مَن حَرَصَ عليه) البخاري، فهذا حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي، وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي، فهو من ثم لا يطبق ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي، إسلامي في نشأته وفي تركيبه العضوي وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة، وإلا فهو الفراغ بالقياس إلى ذلك الحكم، ومثله كل أحكام النظام الإسلامي.

إن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدا بالتزاحم عليه، إلا ابتغاء الأجر بالخدمة الشاقة وأداء الواجب، ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم، وهؤلاء يجب أن

يمنعوها، لكن هذا أمر لا يفهم إلا بمراجعة نشأة المجتمع المسلم وتكوينه وقيمه وموازينه.

وفي أثناء الحركة بهذا الدين، قبل وأثناء وبعد إقامة الدولة الإسلامية، تتميز أقدار الناس ومقاماتهم على موازين وقيم إيمانية يتعارف عليها الجميع، من البلاء في الجهاد، والتقوى والصلاح، والأخلاق والقدوة، والكفاءة، دون الحاجة إلى تزكية النفس أو طلب الإمارة.

وهناك أسئلة كثيرة عن كيفية تطبيق ذلك في زماننا ومجتمعاتنا المعاصرة تصل إلى أن توصف بالمتاهة، ونقطة البدء في هذه المتاهة والسبب فيها هو افتراض أن المجتمع الذي نعيش فيه مجتمع مسلم أو دار إسلام، وأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة، فإذا بدأنا في هذه المتاهة، فإننا نبدأ في فراغ، ونوغل في الفراغ، حتى نبعد في التيه.

إن المحنة الحقيقية هي في تصور أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه، فيغير ويحور في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها، المنبثقة أصلا من مخالفتها للإسلام، ومن خروج حياتها جملة من إطاره، لكن الأمر غير ذلك تماما، إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه، فتغير واقعها حتى تتم هذه المطابقة.

لقد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه خادما للأوضاع الجاهلية والمجتمعات الجاهلية والحاجات الجاهلية، وأن يقولوا للناس، وللذين

يستفتونهم بوجه خاص، تعالوا أنتم أولا إلى الإسلام، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده في كل شيء، وأعلنوا خضوعكم لأحكامه كلها سلفا، وحينئذ سيكون هذا المجتمع هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي، وينمو لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلا.

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ، ولا تعمل في فراغ، وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه، وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع، ولن تنعكس الآية أبدا.

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر، وقبل أن توجد المساجد، وجد من يوم أن قيل للناس (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فعبدوه واتبعوه في كل شيء، ولم تكن الشعائر يومئذ قد فرضت بعد، فالقضية قضية التسليم والخضوع الكامل والاتباع التام.

إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى الخضوع لله وحده، فتأبى الحكم بما أنزل الله، ثم بعد ذلك هو وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله، فتدين لهم بالخضوع والاتباع، فتجعلها أربابا متفرقة معبودة مطاعة.

لقد انقطع وجود دار الإسلام منذ حلت شرائع البشر محل شريعة الله في القرنين الأخيرين، وإن بقيت مآذن ومساجد، وأدعية وشعائر، تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين، وتوهمهم أنه لا يزال بخير، وهو يمحى من الوجود محوا.

ولكي تعود دار الإسلام مرة أخرى، تطبق شريعة ربها وتتبع أمره، فإن ذلك لن يكون بالفقه والدراسات، إنما يكون كما كان أول مرة، طريق طويل بطيء يبدؤه فرد، يدعو ويربي ويجمع ويتحرك، ثم تتبعه طليعة، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية، لتعاني ما تعاني، حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق، ويمكن لها في الأرض.

سادسا : ومضات في الطريق

هناك معان أساسية تلزم الداعية أثناء سيره نحو الله والدار الآخرة داعيا مجاهدا في سبيل الله، فيفهمها ويعمل بها، فتعينه على مشاق الطريق الطويل الصعب.

ا- الضعف

إن الضعف ليس عُذراً بل هو الجريمة، فما يُريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً وهو يدعو الناس إلى حِماه، ويجاهد في سبيل الله (قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)، (فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ)، والضُعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حُريتهم الشخصية فى التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعاً للمُستكبرين والطُغاة، ودانوا لغير الله من عبيده، واختاروها على الدينونة لله.

إن الضمير، والروح، والعقل، لا يملُك أحد حبسها ولا استذلالها إلا أن يُسلمها صاحبها للحبس والإذلال، فأما حين تكون الدينونة لله وحده، واستفراغ الوسع

في سبيل الله، لكنه لم يكف (لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا)، فهؤلاء الذين يعفو عنهم ربهم (فعسى الله أن يعفو عنهم)، وهذه حالة مغايرة تماما للحالة الاولى.

وإن الله يُغلظ على من كفر بعد إيمانه لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثاراً للحياة الدُنيا على الآخرة، فيرميه الله بغضبه وبعذابه العظيم (مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ)، ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مُساومة وحساب للربح والخسارة، وهي ليست صفقة قابلة للأخذ والرد، فهي أعلى من هذا وأعز، ومن ثم كان كل هذا التغليظ فى العقوبة والتفظيع للجريمة.

وقد أبى بعض المُسلمين أن يُظهِروا الكُفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظه باللسان، كذلك صنعت سُمية أم عمار بن ياسر، وهى تُطعن بالحربة فى موضِع العِفة حتى تموت، وكذلك صنع أبوه ياسر، وقد كان بلال رضوان الله عليه يفعل المُشركون به الأفاعيل، حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم وهو يقول: أحد أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقُلتها، وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مُسيلمة الكذاب: أتشهدُ أن مُحمد رسول الله فيقول نعم، فيقول أتشهدُ أنّى رسول الله فيقول لا أسمع، فلم يزل يُقطعِه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

وعندما أسر عبد الله بن حُذافة السهمى مع عدد من المسلمين روي أن ملك الروم سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربهُ، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكُل، فقال: أما أنه قد حلّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك فيّ، فقال له الملك: فقَبِل رأسى وأنا أطلقك، فقال: تطُلق معي جميع أسُارى المسلمين، فقال نعم، فقبّل رأسه، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلّما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حق على كل مسلم أن يُقبل رأس عبد الله بن حُذافة وأنا أبدأ فقام وقبّل رأسه رضى الله عنهما.

ذلك أن العقيدة أمر عظيم لا هوادة فيه ولا ترّخُص، وثمن الاحتفاظ بها فادح، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن وعند الله، وهى أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته، وهانت الحياة عليه، وهان كل ما فيها من نعيم، أمّا الضعاف مشوهي الإيمان فيُغريهم البريق الخادع القريب من عيونهم.

من ذا الذي يملُك أن يجعل أولئك الضُعفاء تبعاً للمُستكبرين فى العقيدة وفى التفكيّر وفى السلوك، من ذا الذي يملُك أن يجعل أولئك الضُعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه، لا أحد، لا أحد إلا أنفُسهم الضعيفة، إنما هم ضعفاء لأن الضعف فى أرواحهم، وفى قلوبهم، وفى نخوتهم.

إن المُستضعفين كثرة، والطواغيت قلة، فَمن ذا الذي يُخضِع الكثرة للقلة وما الذي يُخضعها، إنما يُخضِعها ضعف الروح وسقوط الهِمة وقلة النخوة، فإن الذُل لا ينشأ إلا عن قابلية للذُل فى نفوس الإذِلاّء، وهذه القابلية هي وحدها

التي يَعتمد عليها الطُغاة. فإنما هي الجماهير الغافلة الذلول تمطى له ظهرها فيركب، وتَمُد له أعناقها فيجُر، وتحنى له رؤوسها فيستعلي، وتتنازل له عن حقِها فى العزة والكرامة فيطغى، والجماهير تفعل هذا مَخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى.

وما يُمكن أن يطغى فرد فى أمة كريمة أبداً، وما يُمكن أن يطغى فرد فى أمة رشيدة أبداً، وما يُمكن أن يطغى فرد فى أمة تعرِف ربها وتؤمن به، وتأبى أن تتعبّد لواحد من خلقه لا يملِك لها ضراً ولا رشدا، فالضعف جريمة فى الإسلام نصيبه النار (فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ)، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيُولاً وإمعات، ولم يُخفف عنهم أنهم كانوا غَنماً تُساق لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار.

وعلى العصبة المُسلمة التي ترقى فى الأفق السامق أن تستعلي وتعتز بعقيدتها وربها، فالعزة هى صنو الإيمان فى القلب المؤمن، العزة المُستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون ولا تَهِن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تُزايل القلب المؤمن فى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة مُستقرة راسخة (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

إن العزة كلها لله وليس شيء منها عند أحد، وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر فى القلوب أن تُبدّل المعايير كلها، وتُبدّل الوسائل والخطط أيضاً (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)، فمن كان يُريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره.

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر فى القلب قبل أن يكون لها مظهر فى دُنيا الناس، حقيقة تستقر فى القلب فيستعلي بها عن كل أسباب الذِلة والانحناء لغير الله، حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي، يستعلي بها على شهواته المُذلة ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس، ومتى استعلى على هذه فلن يملِك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه، فإنما تذل الناس شهواتهم ورغائبهم ومخاوفهم ومطامعهم، ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان، وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسُلطان، إنها الاستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله، ثم هي خضوع لله وخشوع وخشية وتقوى، ومن هذا الخضوع ترتفع الحياة، ومن هذه الخشية لله تصمُد لكل ما يأباه.

ب- الخوف

إن العقيدة هي كل شىء فى نفوس أصحابها، ليس لهم من إرب فى الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية فى حياتهم من سواها، عقيدة يعيشون لها وحدها فلا يبقى لهم فى أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية لا يبذلونها لها، ولا يُقدمونها فداها، إنها صورة رائعة هائلة لهذه العقيدة التى تُعلِن ميلاد القوة الحقيقية الكبيرة فى النفوس المُعلقة بالله، فهى لا تخشى إلا الله لأنه رب كل شىء، ولا تخشى الناس لأن الله رب الناس (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

والشيطان هو الذي يُضخم من شأن أوليائه ويلبسهم لباس القوة والقُدرة، ويرفع فى القلوب أنهم ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضر، ليُحقق

بهم الشر فى الأرض والفساد، وليُخضع لهم الرقاب ويُطوّع لهم القلوب، فلا يرتفع فى وجوههم صوت بالإنكار، ولا يُفكر أحد فى الانتقاض عليهم ودفعهم عن الشر والفساد (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ).

والشيطان صاحب مصلحة أن ينتفش الباطل، وأن يتضخّم الشر، وأن يتبدي قوياً قادراً بطاشاً جباراً، لا تقف فى وجهه مُعارضة، ولا يصمُد له مُدافع، ولا يغلبه من المُعارضين غالب، فتحت ستار الخوف والرهبة، وفى ظل الإرهاب والبطش، يفعل أولياؤه فى الأرض ما يقر عينه، يقلبون المعروف مُنكراً والمُنكر معروفاً، وينشرون الفساد والباطل والضلال، ويخفتون صوت الحق والرُشد والعدل، ويُقيمون أنفسهم آلهة فى الأرض تحمي الشر وتقتُل الخير.

(فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، (فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ)، إن القرآن نزل ليضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، **لقد قرر أن هناك قوة واحدة فى هذا الوجود هي قوة الله، وأن هُناك قيمة واحدة فى هذا الكون هي قيمة الإيمان،** فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ولو كان مُجرداً من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فَقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً.

وإن الجهاد فى سبيل الله لإقرار منهج الله فى الأرض، وإعلان سُلطانه على البشر، وتحكّيم شريعته فى الحياة لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس، لهو صفة العصبة المؤمنة التى يختارها الله ليصنع بها فى الأرض ما يُريد،

وإن الحُكم بما أنزل الله سيواجه فى كل زمان وفى كل أمة مُعارضة، مُعارضة الكُبراء والطُغاة وأصحاب السُلطان الموروث، ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدّعونه، وسيواجه مُعارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظُلم والسُحت، وسيواجه مُعارضة ذوى الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال.

(فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) هذا هو الطريق، يجب أن لا تقف خشية الناس دون تنفيذ شريعة الله، يجب أن لا تقف الخشية لهؤلاء جميعاً، ولغيرهم من الناس، دون المُضي فى تحكيم شريعة الله فى الحياة، فالله وحده هو الذي يستحق الخشية، والخشية لا تكون إلا لله، وهُناك من تُراودهم أطماع الحياة الدُنيا ممن يدعون لأنفسهم اسم المُسلمين، وهم يجدون أصحاب السُلطان وأصحاب المال وأصحاب الشهوات لا يُريدون حُكم الله، فينافقون هؤلاء جميعاً طمعاً فى عرض الحياة الدُنيا، كما يقع من رجال الدين المُحترفين فى كل زمان وفى كل مكان، وهؤلاء بهذا يشترون بآيات الله ومنهجه ودستوره عرضاً حقيراً (وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً)، وذلك ممن يسكتون على الباطل خوفاً منه، أو يُحرِفوّن ما أنزل الله، أو يلقُون الفتوى المدخولة، وذلك مُقابل رواتب ووظائف وألقاب ومصالح صغيرة يُباع بها الدين وتُشترى بها جهنم عن يقين، فلابُد للدُعاة إلى الله أن لا يحسبوا للخلق حساباً فيما يُكلفهم الله به من أمور الرسالة، ولا يخشون أحداً إلا الله الذى أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيّذ (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ).

لابُد للدُعاة من الجهاد لإقرار منهج الله في الأرض (يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ)، فهُم يُجاهدون في سبيل الله لا في سبيل أنفسهم، ولا

في سبيل قومهم، ولا في سبيل وطنهم، ولا في سبيل جنسهم، إنما في سبيل الله لتحقيق منهج الله وتقريّر سُلطانه وتنفيّذ شريعته، وهُم يُجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس، وأمّا من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعِزته فما يُبالي ما يقول الناس.

إنه الأصل الذي يجب أن نرجع إليه فى الوزن والقياس والتقويم، إنه منهج الله وشريعته وحُكمه، فهو وحده الحق وكُل ما خالفه فهو باطل، ولو كان عُرف ملايين الملايين، ولو أقرته الأجيال فى عشرات القرون، ومن هُنا تُجاهد العصبة المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم، فهذه سمة المؤمنين المُختارين الذين لا يخافون أى شىء، فالخوف من الله الأحد.

وإن قلب المؤمن ينبغى أن يكون راسخاً ثابتاً لا تهزمه فى الأرض قوة وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره القاهر فوق عباده، وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة وهو يواجه الخطر، فإن هذه الهزة لا يجوز أن تكون هزيمة وفِراراً، والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولّي المؤمن خوفاً على الحياة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)، (أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، فأنتم يا دُعاة الإسلام أنتم ستار قُدرته سُبحانه وأداة مشيئته (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

ويوجد دائماً فى الصف الإسلامى فئة تُجيد المُداورة، وتنفذ من الأسوار، وتتقن استخدام الاعذار، وتدور من خلف الجماعة، وإنه لمن مصلحة العصبة المسلمة أن تهتك الأستار، فيمتاز المُكافحون المُخلصون، ويُكشَف المداورون.

وهُناك الخوف على الأهل، وهي حقيقة عميقة فى الحياة البشرية، فالله يمس وشائج مُتشابكة دقيقة فى التركيب العاطفي، وفى مُلابسات الحياة سواء (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)، وكثيراً ما يكون الأهل دافعاً للتقصيّر فى تبِعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تُحيط بهم، ولو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المُجاهد فى سبيل الله، يتعرّض لخسارة الكثير، والتضحية بالكثير، كما يتعرّض هو وأهله للعنت، **وقد يتحمّل العنت فى نفسه ولا يَحتمله فى زوجه وولده، فيبخل ويجبُن ليوفّر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال، فيكونون عدواً له لأنهم صَدوه عن الخير**، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنسانى العُليا، كما أنهم قد يقفون له فى الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه اتقاء لما يُصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون فى طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المُفاصلة بينه وبينهم والتجرّد لله، لذلك كان التحذير من الله لإثارة اليقظة فى قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلُل هذه المشاعر وضغط هذه المؤثرات.

إن أصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة فى رُسل الله، وإنه لينبغي لهم أن تُمتلىء قلوبهم بالثقة حتى تفيض، وإن عليهم أن يتوكلوا على الله وحده فى وجه الطاغوت أياً كان (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ)، فإن

الطاغوت لا يتحمّل بقاء الداعية في نظامه، لأن الداعية ماضٍ في طريقه وهو يقول لهم: نفذوا ما اعتزمتم بشأني وما دَبرّتم (ولا تنظرون)، لا تمهلوني، فكل استعدادي هو اعتمادي على الله وحده دون سواه، فليس هذا التحدي غروراً، وليس كذلك تَهوراً وليس انتحاراً، إنما هو تَحدي القوة الحقيقية الكُبرى للقوة الهزيلة الفانية، التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان. وأصحاب الدعوة إلى الله جديرين أن يقفوا هذه الوقفة دائماً، ولن يضرهُم الطاغوت إلا أذى، ابتلاءا من الله، لا عجزا منه سُبحانه عن نُصرة أوليائه، ولا تركاً لهم ليسلموا إلى أعدائه، ولكنه الابتلاء الذى يُمحِص القلوب والصفوف، ثم تعود الكرة للمؤمنين.

هذه هي سُنة الله فى الأرض، فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق، الدعوة للناس كافة أن يُنحّوا هذه الأرباب الأرضية عن حياتهم وأوضاعهم ومُجتعاتهم وقيمهم وشرائعهم، وأن يعودوا إلى الله وحده يتخذونه رَباً لا أرباب معه، ويدينون له وحده، فلا يتّبعون إلا شرعه ونهجه، ولا يُطيعون إلا أمره ونهيه، ثم هي بعد هذه وتلك المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد، وبين الجاهلية والإسلام، وبين طلائع البعث الإسلامى وهذه الطواغيت فى أرجاء الأرض والأصنام، يجب على الدُعاة أن يتأسوا برسُل الله (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم) نقف أمام تلك المواجهة من هود لقومه، وأمام هذا الحسم الكامل وفي تحدٍ سافر وثقة من ربه، إن أصحاب الدعوة إلى الله فى كل مكان وفى كل زمان فى حاجة أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر، رجُل واحد لم يؤمن معه إلا قليل، يواجه أعتى أهل الأرض،

وأكثر أهل الأرض حضارة مادية فى زمانهم، وأشد أهل الأرض بَطشاً كما قال عنهم الله (وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ).

هذا هو الطريق، وذات يوم لابُد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المُفاصلة الكاملة، فإذا القوم الواحد أُمتان مُختلفتان، أمة تَدين لله وحده وترفُض الدينونة لسواه، وأمة تتخّذ من دون الله أرباباً وتُحادّ الله، ويوم تتم هذه المُفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه، والتدمير على كل أعدائه، فى صورة من الصور التي قد تخطُر وقد لا تخطُر على البال، ففي تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ لم يفصِل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده، وكانوا هُم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره، والذين لا يجدون لهم ناصراً سواه.

ج- حقيقة القوة

إن حقيقة القوى فى هذا الوجود كثيراً ما يغفل الناس عنها فيسوء تقديرهم لجميع القيم ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات، وتختل فى أيديهم جميع الموازين، ولا يعرِفون إلى أين يتجِهون، ماذا يأخذون، وماذا يدعون، وعندئذ **تخدعهم قوة الحكم والسُلطان،** يحسبونها القُدرة القادرة التي تعمل فى هذه الأرض فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ويخشونها ويفزعون منها، ويترضونها ليكفّوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حماها، **وتخدعهُم قوة المال،** ويحسبونها القوة المُسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة، ويتقدمون إليها فى رغب ورهب، ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها، **وتخدعُهم قوة العلم** يحسبونها أصل القوة وأصل المال وسائر القوى التي يصول بها من

يملُكها ويجول، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عُباد فى المحاريب، وتخدعُهم هذه القوة الظاهرة، تخدعهُم فى أيدي الأفراد، وفى أيدي الجماعات، وفى أيدي الدول، فيدورون حولها ويتهافتون عليها كما يدور الفراش على المصباح، وكما يتهافت الفراش على النار.

إن قوة الله وحدها هى القوة، وولاية الله وحدها هى الولاية، وما عداها فهو واهٍ ضئيل هزيل مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطُغيان والتنكيل، إنها العنكبوت، وما تملُك من قوى ليست سوى خيوط العنكبوت **(**وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**)**، وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرّضون للفتنة والأذى، وللإغراء والإغواء، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة وهم يواجهون القوى المُختلفة، هذه تضربهم وتُحاول أن تسحقهم، وهذه تستهويهم وتُحاول أن تشتريهم، وكُلها خيوط العنكبوت فى حساب الله، وفى حساب العقيدة حين تصح العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى وتحس حقيقة القوى.

فمن كان الله معه فلا شيء إذن ضده، ومهما يكُن ضده من شيء فهو هباء لا وجود له فى الحقيقة ولا أثر **(**وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ**)**، ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، **فإن معية الله سُبحانه تهديه كما أنها تكفيه**، ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى، فإن قربهُ من الله يُطمئنه ويُسعده، ولكن معية الله لم يجعلها الله سُبحانه جُزافاً ولا مُحاباة، ولا كرامة شخصية مُنقطعة عن أسبابها وشروطها، إن معية الله لمن يعبدونه حق العبادة، ويحملون منهجه ونظامه، ويحملون دعوته.

إنه سُبحانه يجعل صفهم صفه، وأمرهم أمره، وشأنهم شأنه، يضُمهم سبحانه إليه ويأخذُهم فى كنفه، ويجعل عدوهم عدوه، وما يوجه إليهم من مكر موجهاً إليه سُبحانه (يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا)، كانوا يُحسون أن الله يسمع لهم وهو قريب منهم وأنه معني بأمرهم عناية مُباشرة، وأن شكواهم ونجواهم تصل إليه بلا وساطة، ولا يهملها ولا يكلها إلى سواه، ومن ثم كانوا يعيشون فى أنس بربهم، فى كنفه، فى جواره، فى عطفه، فى رعايته، ويجدون هذا كله فى نفوسهم حياً واقعياً، وليس معنى ولا فكرة، ولا مُجرد تمثيل وتقريب (إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)، هذه الحقيقة يرسُمها الله لتستقر فى القلوب وليعرِفها على وجه خاص أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان فى كل زمان ومكان، فلا تتعاظمهم قوى الباطل الظاهرة فى فترة محدودة من الزمان، ورِقعة محدودة من المكان، فهذه ليست الحقيقة، إنما الحقيقة هي التي يُصورها كتاب الله، وتنطِق بها كلمة الله، وهو أصدق القائلين، وهو العزيز العليم.

د- التوكل على الله

(وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)، (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا)، إنها كلمة المؤمن المُطمئن إلى موقفه وطريقه، المالىء يديه من وليه وناصره، المؤمن أن الله الذي يهدي السبيل، لابدُ أن يَنصُر ويُعين، وإن حقيقة الارتباط فى قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله، وبين بديهية التوكُل عليه، لا تستشعرها إلا القلوب التي تُزاول الحركة فعلاً فى مواجهة طاغوت الجاهلية، والتي تستشعر فى أعماقها يد الله سبحانه وهي تفتح لها كوى النور، فتُبصر الآفاق المُشرقة، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحس الأنس والقربى.

وحينئذ لا تحفل النفس بما يتوعدّها به طواغيت الأرض، ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد، وهي تحتقر طواغيت الأرض، وما فى أيديهم من وسائل البطش والتنكيّل (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا). (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) فهذا البيان هو الدستور الذي يُغني ويكفي، ويكشف الطريق الواصل الثابت المُستقيم، فمن ذا يُخيف، وماذا يخيف، إذا كان الله معه، ومن ذا الذي يشُك فى كفاية الله لعبده، وهو القوي القاهر فوق عباده، فإذا تقرر هذا فما الذى يخشاه داعية إلى الله، ما الذى يخشاه، وما الذى يرجوه، وما الذى يُقلقه أو يُخيفه أو يصُده عن طريقه (قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ).

وإن الذين يجدون فى قلوبهم الاتكال على أحد غير الله، أو على سبب، يجب أن يبحثوا ابتداء فى قلوبهم عن الإيمان بالله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)، أى لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكُن، وأنهُ المُتصرّف فى المُلك لا شريك له، ولا مُعقِب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب، فالمؤمن يتخّذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمُر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي تُنشىء النتائج فيتكِل عليها، إن الذي يُنشىء النتائج كما يُنشىء الأسباب هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة فى شعور المؤمن، فاتخاذ السبب عبادة بالطاعة، وتحقيق النتيجة قدر من الله مُستقل عن السبب،

لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرّر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلُق بها، وفى الوقت ذاته يستوفيها بقَدر طاقته لينال ثواب طاعة الله فى استيفائها.

وعلى الداعية أن يُعلن عقيدته الناصعة فى تولي الله وحده (قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ . إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ . وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) إنها كلمة صاحب الدعوة فى وجه الجاهلية، ولقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمره ربُه وتحدّى بها المُشركين وآلهتهم المُدّعاة (قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ).

إنه لابُد لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرّد من أسناد الأرض، وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض، إنها فى ذاتها واهية واهنة، مهما بدت قوية قادرة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ).

وصاحب الدعوة إلى الله يرتكِن إلى الله، فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن، وما تُساوى فى حسه، حتى لو قَدرت على أذاه، إنما تقدِر على أذاه بإذن ربه الذي يتولاه، لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها سُبحانه وتعالى، ولا تخلياً منه سُبحانه عن نُصرة أوليائه، ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب، واستدراجاً لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين.

إن صاحب الدعوة إلى الله في كل زمان وفي كل مكان لن يبلُغ شيئاً إلا بمثل هذه الثقة، وإلا بمثل هذه العزيمة، وإلا بمثل ذلك اليقين (إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)، ومهما أسفر الباطل عن غشمه، وأطلق على الدُعاة تهديده، وبغى فى وجه كلمة الحق الهادئة، وعربد فى التعبير والتفكير، ينبغي على الدُعاة أن يمضوا فى الطريق، وأن يحملوا الواجب المُلقى على عاتقهم.

هـ- الاستسلام لقدر الله

إن المنهج الإلهي يُريد أن يُصحح التصور عن الموت والحياة وأسبابهما الظاهرة وحقيقتهما المُضمرة، وردِ الأمر فيهما إلى القُدرة المُدبرة، والاطمئنان إلى قُدرة الله فيهما، والمُضي فى حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ)، فإن الحذّر لا يُجدي، وإن الفزّع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمُدان أجلاً، ولا يردُان قضاء، وهذه لفتة من اللفتات القُرآنية تقِر فى الأخلاد حقيقة ينساها الناس وهي تُلاحقهم أينما كانوا، فهذه الحياة إلى انتهاء (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

إنه لابُد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض محدودة بأجل ثُم تأتي نهايتها حتماً، يموت الصالحون، ويموت الطالحون، يموت المُجاهدون، ويموت القاعدون، يموت المُستعلون بالعقيدة، ويموت المُستذلون للعبيد، يموت الشُجعان الذين يأبون الضَيم، ويموت الجُبناء

الحريصون على الحياة بأى ثمن، يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص، الكُل يموت (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)، والفارق فى المصير الأخيّر (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)، (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ)، ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال في سبيل الله إذن، ولا هذا التكليف والتعرُض للناس فى الجهاد يعجله عن موعده.

فلا معنى إذن لخشية الناس فى القتال أو غير القتال، إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته، وكل ما فى طوقه من استعداد وأهبة ووقاية، والله يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً)، ولكن هذا كله وتعليق الموت والأجل به شيء آخر، إن أخذ الحذر واستكمال العُدة أمر يجب أن يُطاع وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله.

هذا هو الإسلام وهذا هو منهج التربية الإسلامي، فقدر الله هو المُسيطر على الأحداث والمصائر يدفعها في الطريق المرسوم وينتهي بها إلى النهاية المحتومة، والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه فى موعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً)، ولن ينفع الفرار فى دفع القدر المحتوم عن فارّ.

فالاستسلام الاستسلام، والطاعة الطاعة، والوفاء الوفاء، الوفاء بالعهد مع الله فى السراء والضراء، فيرجع الأمر كله إليه، مع التوكُل الكامل عليه، ثُم يفعل الله ما يشاء.

فالخوف والهلع والحرص والتخّلف لا تُطيل أجلاً، والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تُقصِر عُمراً، فلا كان الجُبن ولا نامت أعيُن الجُبناء، والأجل المكتوب لا ينقُص منه يوم ولا يزيد، هذا هو الطريق (قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ).

إن صاحب العقيدة مُدرِك لسُنن الله مُتعرّف إلى مشيئة الله مُطمئن إلى قدَر الله، إنه يعلم أنه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكُن ليُخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه، ومن ثم لا يتلقى الضرّاء بالجزع، ولا يتلقى السرّاء بالزهو، ولا تطير نفسُه لهذه أو تلك، ولا يتحسّر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا أو ليستجلب كذا بعد وقوع الأمر وانتهائه، وإنما صاحب العقيدة كُل ما يقع له يتلّقاه بالرضى والطمأنينة والتسلّيم، موقناً أنه وقع وِفقاً لقدر الله وتدبيره وحكمته، وأنه لم يكُن بُد أن يقع كما وقع، ولو أنه هو قدّم أسبابه بفعله، **توازُن بين العمل والتسلّيم، والإيجابية والتوكُل، يستقيم عليه الخطو ويستريح عليه الضمير.**

والله يُحذّر المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان، فى تربية لهم، أن لا يكونوا كالذين كفروا، أولئك تصيبُهم الحسرات كُلما مات لهم قريب فى ثنايا المعركة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ

حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، فيجب على المُسلم أن يستسلم لله استسلاماً مُطلقاً مع إحسان العمل والسلوك، الاستسلام بكامل معناه، والطمأنينة لقدر الله، والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته، مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة، والرضى الوجداني، رضى السكون والارتياح (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)، طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها فى مواجهة الأحداث من هُنا ومن هُناك.

وإن القلوب الحائرة لتُبث الضعف والخور فى الصفوف، والنفوس الخائنة خطر، ذلك بأنهم يأخذون بظواهر الأمور ويحسبون البلاء شراً في كل حال، والمُسلم الصادق يبذُل جُهده ويُقدِم ولا يخشى، اعتقاداً بأن ما يُصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله، وأن الله ناصر له ومُعين (قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً)، **ليس فى أنفسهم شيء، وليس لهُم من أمرهم شىء، إنما هم وما ملكت أيديهم يصرّفهم كيف يشاء، ويختار لهم ما يُريد**، وإن هُم إلا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق الناموس العام، وخالق هذا الوجود ومُدبِره يُحركهُم مع حركة الوجود العام، ويُقسم لهم دورهم فى رواية الوجود الكبيرة، إنه الاستسلام المُطلق ليد الله تقودُ خُطاهم، وتُصرّف حركاتهم، وهُم مُطمئنون لليد التي تقودُهم شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين، سائرون معها فى بساطة ويُسر ولين، وهُم مع هذا يعلمون ما يقدرون عليه، ويبذلون ما يملكون كُله، ولا يُضيّعون وقتاً ولا جُهداً،

ولا يتركون حيلة ولا وسيلة، ثم لا يتكلّفون ما لا يطيقون، ولا يُحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص، ومن ضعف وقوة، ولا يدّعون ما لا يجدونه فى أنفسهم من مشاعر وطاقات، ولا يحبون أن يُحمدوا بما لا يفعلوا، وأن يقولوا غير ما يفعلون.

إن حقيقة الإيمان يجب أن يُنظر إليها بالحد الواجب، فلا تتميّع حتى تُصبح كلمة يقولها اللسان، ومن ورائها واقع يشهد ظاهره بعكس ما يقوله اللسان (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)، إن المنهج الإسلامي منهج عقيدة، وعمل يُصدّق العقيدة، فمحك الصدق هو العمل يراه الله ورسوله والمؤمنون (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).

و- الحياة في التصور الإسلامي

فهم الحياة في التصور الإسلامي، وطريقة التعامل معها،ومعايير الأهمية فيها، يتركز على ثلاث قضايا رئيسية.

1- الدار الآخرة :

إن الحياة في التصور الإسلامي **تمتد في الزمان فتشمل هذه الفترة المشهودة،** فترة الحياة الدنيا، وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله، والتي تُعد فترة الحياة الدُنيا بالقياس إليها ساعة من نهار.

وتمتد في المكان فتضُيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، دارا أخرى: جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين السنين.

وتمتد في العوالم فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مُغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله، ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبر به الله: وجود يبدأ من لحظة الموت وينتهي في الدار الآخرة، وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله، وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صور لا يعلمُها إلا الله.

بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة يتضاءل تصورهم للوجود الكوني وتصورهم للوجود الإنساني، وهُم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجُحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا، ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم، ويبدأ الاختلاف في النظم، ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة مُتكامل مُتناسق، وتتبين قيمة الآخرة في بنائه تصوراً واعتقاداً وخُلقاً وسلوكاً وشريعة ونظاماً، فإن إنساناً يعيش في هذا المدى المُتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات، غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق، ويُصارع الآخرين عليه بلا انتظار لعوض عما يفوته، ولا جزاء عما يفعلُه وما يُفعل به، إلا في هذه الأرض.

ومن هؤلاء الناس الذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدُنيا، وإلى إهمال هذه الحياة وتركها بلا جُهد لتحسينها وإصلاحها، وتركها للطُغاة والمُفسدين تطلُعاً إلى نعيم الآخرة، وكذبوا والله، فالدنيا في التصور الإسلامي هي مزرعة الآخرة، والجهاد في الحياة

الدنيا لإصلاح هذه الحياة، ودفع الشر والفساد عنها، ورد الاعتداء عن سُلطان الله فيها، ودفع الطواغيت وجنودهم، وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً، كل أولئك هو زاد الآخرة، وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة، ويُعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل، وما أصابهم من الأذى، وإن قيمة الدنيا بالنسبة لقيمة الآخرة في ميزان الله الصحيح (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ).

وإن الجيل الأول الذي كان يُدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة، وطاقة فائضة في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة.

وهذه الأنظمة والأوضاع التي تنشأ في الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان بلا عدل ولا رحمة ولا قسط ولا ميزان، إلا أن يُصارع الأفراد بعضهم بعضاً، وتصارُع الطبقات بعضها بعضاً، وتصارُع الأجناس بعضها بعضاً، وينطلق الكل في الغابة انطلاقاً لا يرتفع كثيراً على انطلاق الوحوش والغيلان كما نشهد اليوم في عالم الحضارة في كل مكان.

أن اليقين بالآخرة ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان تصوراً واعتقاداً، وخُلقاً وسلوكاً وشريعة ونظاماً، إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يُرجح الكفة، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا، نعم إنها هي التي لا يصلُح قلب ولا تصلُح حياة إلا بها، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بمُلاحظتها.

لا شيء يثبُت أمام التغير والأحداث وتقلُبات الأحوال في هذا الخضم الهائج، وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وإنها خير للذين يتقون ويعفون ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون، مُطمئنين واثقين، ملأ قلوبهم اليقين.

ولقد علم الله أن أمة من الأمم لا تملُك أن تقود البشرية وتشهد عليها كما هي وظيفة الأمة المسلمة، إلا أن تكون عقيدة الآخرة واضحة لها راسخة في ضميرها، كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة.

لقد بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح، حتى بات عالم الآخرة في حس المؤمنين أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً، وبهذا صلُحت هذه الأمة لقيادة البشرية تلك القيادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني.

2- القاعدة الإيمانية الكبيرة :

ويجب على الدُعاة أن يقفوا أمام القاعدة الإيمانية الكبيرة ويدعوا الناس إليها : **قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء**، فلا افتراق بين دين ودنيا، ولا افتراق بين دنيا وآخرة، فهو منهج واحد للدنيا والآخرة، للدنيا وللدين، تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة من هذا القرآن الكريم (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ

التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ).

وهكذا يبدوا من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا لا يكفُل لأصحابه جزاء الآخرة وحدها، وإن كان هو المُقدم وهو الأدوم، ولكنه كذلك يكفُل صلاح أمر الدنيا، ويُحقق لأصحابه جزاء العاجلة، **وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مُستقل لحسن الجزاء في الآخرة، وطريق آخر مُستقل لصلاح الحياة الدنيا، إنما هو طريق واحد تصلُح به الدنيا والآخرة.**

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلاً من الدنيا، ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا، لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم، بحيث أصبح الفرد العادي وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة، لا يرى أن هُناك سبيلاً للالتقاء بين الطريقين، ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا، فيُهمل الآخرة من حسابه، وإما يختار طريق الآخرة، فيهمل الدنيا من حسابه، فالعداء بين الدنيا والآخرة، والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، ليسا من طبيعة هذه الحياة أصلاً، إنما هي عارض ناشىء من انحراف طارىء.

إن الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيه للناس، فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة، وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وِفق شريعة الله فريضة، والخلافة عمل وإنتاج ووفرة ونماء وعدل.

وأما بالنسبة إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف، إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة في المنهج الإسلامي لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان.

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وبين العبادة الروحية والإبداع المادي، وبين النجاح في الحياة الدنيا والنجاح في الحياة الأخرى، إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية، إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله، وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند نفسها مُعادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه.

وتُعاني البشرية كلها ذلك الشقاء سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية، أو المذاهب المادية التي تُحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية، وتتصور أو يُصور لها أعداء البشرية، أن الدين لله وأن الحياة للناس، وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخُلق فقط، وأن الحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل، فتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة.

3- غاية الحياة في الإسلام :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)، إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هُنالك غاية مُعينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصّر فيها أو نكل عنها، فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل الذي تستمد منه قيمتها الأولى.

هذه الوظيفة المُعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود هي العبادة لله أو هي العبودية لله: أن يكون هُناك عبد ورب، عبد يعبُد وربّ يُعبَد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)، فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرُف إلى قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها، وتُحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، **كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض**، لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام.

وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين: **الأول** : هو استقرار معنى العبودية في النفس، أي استقرار الشعور على أن هُناك عبداً ورباً، عبداً يعبُد، وربا يُعبَد، **خضوع واستسلام تام لله**، وأن ليس وراء ذلك شيء، **والثاني:** هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، وهذا هو **الاتباع.**

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ويُصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر

على الشدائد والرضا بقدر الله، كلها عبادة، وكُلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها.

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هُنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة، طاعة لله وعبادة له، لا إرب له فيها ولا غاية له من ورائها إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضا عن وضعه وعمله، ومن أنس برضا الله عنه ورعايته له، ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً، **ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويُحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها، ولكن لتحقيق معنى العبادة ثم الفرار إلى الله منها.**

ومن مُقتضيات العبودية كذلك أن تُصبح قيمة الأعمال في النفس مُستمدة من بواعثها لا من نتائجها، فلتكُن النتيجة ما تكون، لأن جزاءه ليس في نتائجها، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها، وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق، أفق العبادة وأفق العبودية، ويستقر عليه، فإن نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة، ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته العُليا، ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير وطمأنينة النفس وصلاح البال في جميع الأحوال، سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها، تحققت كما قدّرها أم على عكس ما قدّرها، فهو قد أنهى عمله وضمن جزاءه، وقد علم هو أنه عبد، **فلم يعُد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد،** وعلم أن الله رب، فلم يعُد يتقحم فيما هو من شئون الرب، واستقرت مشاعره عند هذا الحد، **ورضي الله عنه ورضي هو عن الله.**

الخاتـــــــمة

وبعد،

فهذا ما وجب طرحه في عجالة لمحاولة المشاركة في الاستدراك على ما نحن فيه الآن، خاصة أن التساقط يزيد يوميا، وعدد من يقعون فريسة للمفاهيم المغلوطة يزيد، جهلا أو هوى أو يأسا، وأصبح فهم الإسلام الصحيح في هذا الزمان عملة نادرة، كما ابتلينا بمن يخالف الشرع صراحة بتأويلات فاسدة، وأصبح المخلصون يبحثون عمن يأخذ بأيديهم إلى الطريق الصحيح بفهم واع وعمل قوي.

ليس لنا إلا أن نصل أنفسنا بالله وحده، فنحسن عبادتنا وذكرنا وتوكلنا، ثم نعزم على العمل الصالح الأعلى والأليق في زماننا، ثم نعد ونجاهد بكل ما أوتينا من قوة في سبيل الله، ونموت على ذلك بإذن الله.

اللهم خذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك

اللهم استخدمنا ولا تستبدلنا فيما بقي من أعمارنا

اللهم اجمع قلوبنا على الحق، وسدد عملنا في الحق، وانصرنا يا قوي

الله اختم لنا بحسن الخاتمة ... اللهم آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

هشام صقر، ماليزيا، مارس 2020.

المراجع

الموسوعة الشاملة : مقاصد الشريعة الإسلامية

سيد قطب : في ظلال القرآن

سيد قطب : معالم في الطريق

عادل مباركي : مقاصد الشريعة الإسلامية

عبد الرؤوف بن محمد أمين الأندونيسي : الاجتهاد

عبد الله الغليفي : تعريف مقاصد الشريعة الإسلامية

عبد العزيز رجب : أنواع المقاصد باعتبار تعلقها بعموم التشريع وخصوصه

عبد الكريم زيدان : شرح الأصول العشرين

عودة جاسر : فقه المقاصد

محمد أحميمد : مفهوم مقاصد الشريعة

محمد عبد العاطي محمد علي : الضروريات والحاجيات والتحسينات

هشام صقر : التعددية في ميزان الإسلام

هشام صقر : خلاصات في السياسة الشرعية

الفهرس